بعض الرموز المستخدمة في هذا البحث

هناك مجموعة من المصطلحات المستخدمة في هذا البحث، ويحسن التنبيه عليها لكي يسهل فهم ما يُعْرَضُ على صفحاته من أمثلة وكثير من هذه المصطلحات شائع الاستخدام في علم " الفنولوجيا " (علم التشكيل الصوتي)، غير أنه لم يشع في البحوث العربية، وقليل منها استعملها بعض الباحثين العرب في كتبهم وبحوثهم إلا أنها ظلت حبيسة تلك الكتب والبحوث. ومن هذه المصطلحات:

١. / / الخطان المائلان، ونعني بهما أن الحرف الواقع بينهما حرف (فونيم)، وله أصوات متماثلة صوتيا في توزيع تكاملي وتغير حر . وهذه الأصوات المتماثلة هي أفراد عائلة هذا الحرف (الفونيم).

٢. [ ] المربعان المفتوحان على بعضهما، ونعني بهما أن الحرف الواقع بينهما هو (ألوفون)، وليس حرفا (فونيما)، بمعنى أنه أحد صور الأصوات المتماثلة للحرف (الفونيم)، أو أحد أفراد عائلة الحرف (الفونيم) التي نجدها في السياق الأدائي.

٣ . *——← : هذه النجمة التي ترد في بداية السهم تعني الإشارة إلى تحديد موقع الحرف (الفونيم) الذي لحقه التغيير في الأداء، و الفراغ الذي بعدها المشغول بالخط يشير إلى موقع الحرف (الفونيم)، وهذا يعني أن التأثير الذي وقع على الحرف (الفونيم) أتى من اليمين إلى اليسار مع اتجاه السهم .

٤ . →—— *: هذا المصطلح يعني عكس المصطلح السابق تماما.

٥ . ــــــ/: نعني بهذا المصطلح أن الحرف (الفونيم) يصبح (ألوفونا) أو أحد أفراد عائلة الحرف (الفونيم) عندما أو (إذا) وقع بعد الحرف (الفونيم) /، أو (الألفون) [ ] .

٦. + هذا الرمز يعني وجود الصفة في الحرف (الفونيم)، وهو ما يعبر عنه بالإيجاب.

٧. – هذا الرمز يعني عدم وجود الصفة في الحرف (الفونيم)، وهو ما يعبرون عنه بالسلب.

مقدّمة

عندما تتشكل الوحدات الصوتية داخل بنية لفظة ما لتؤلف كلمة على نسق النظام الصوتي للغة بعينها؛ فإنه يصبح لزاما – وفق القوانين الصوتية – أن تتعدل أنساق وأنماط هذه الوحدات الصوتية اللغوية فيما بينها محدثة فيما يسمى – صوتيا – بـ(الانسجام أو التناسب أو التجانس أو التوافق الصوتي اللغوي)، إذ الوحدة الصوتية – في رأينا – هي أساس الكلمة في اللغات البشرية المنطوقة، وهذه الكلمة مؤلفة من مجموعة من الوحدات الصوتية بينها قدر عظيم من الروابط والعلاقات والتناسب والتوافق ... وهي مترابطة فيما بينها بأوثق صلة بحيث تؤلف كلا متكاملا يصعب تفكيك أجزائه إلا بهدمه . وننظر إلى الكلمة بهذا التشبيه على أنها كائن قائم بعينه ذو حدود وعناصر متعددة تداخلت أجزاؤها فيما بينها تداخلا متناسبا مع طبيعتها النطقية، وقد أدى ذلك إلى ترابط هذه العناصر والأجزاء بعضها مع بعض، واختفاء الفوارق فيما بينها، وتعديل بعضها ليتلاءم بعضها مع بعض في أثناء النطق . وربما اقتضى جزء من ذلك تعديلا لهذه الوحدة الصوتية يتناسب مع مقتضيات السياق الصوتي المخالفة – أحيانا – للنظام العام لأصوات اللغة . ولنتأمل هذه الألفاظ في اللغة العربية:

أ	ب
يَتزَكَّى	يَزَّكَّى
مُذْتَكِر	مُذْدَكِر
اضْتَرَّ	اضْطَرَّ
اطْتَلَعَ	اطَّلَعَ
ادْتَعَى	ادَّعَى

المُتَدَثِّر	المُدَّثِّر
اذْدَكَر	اذَّكَرَ
اضْطَلَح	اصَّلَح

وبمقارنة ما في المجموعة الأولى من كلمات مع ما حصل لها في المجموعة الثانية نجد أن حروف• (التاء، والدال، والطاء وغيرها) في المجموعة (أ) – كما يعترف بها النظام الكتابي لحروف اللغة العربية الذي يتعامل مع النظام الصوتي النطقي – غالبا – قد تغيرت في المجموعة (ب) – حسب مقتضيات السياق الصوتي النطقي – إلى حروف (الزاء، والدال، والطاء، والذال) . وهذه المقتضيات السياقية الصوتية النطقية نلحظها أيضا – بجلاء – في الألفاظ الإنجليزية التالية:

كهربائي	Electricity	كهرباء	Electric
تعصب	Fanaticism	متعصب	Fanatic
عالم صوتي	Phonetician	صوتي	Phonetic

حيث تغير النطق بحرف (k) في المجموعة (١) في الألفاظ الإنجليزية – حسب مقتضيات السياق – إلى حروف (s , ch) في المجموعة (٢)(١)، عندما

● عرف ابن جني الحرف بأنه: حد منقطع الصوت وغايته وطرفه، سر صناعة الإعراب ١٦/١، وحدد الصوت والحرف بقوله: الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا، سر صناعة الإعراب ٦/١، أما الحروف – في عصرنا – تكاد تكون مقترنة بالكتابة، فاللغة فيها جانبا النطق والكتابة، والنطق أهم من النطق كما يقول ابن جني، سر الصناعة، ٥٠/١.

(١) انظر مزيدا من الإيضاح في GENERATIVE PHONOLOGY.لمؤلفه =

وقعت (c) بين الحركتين (الصائت ـــــ i)، وهو ما يجعلنا نتساءل في الصفحات القادمة – إن شاء الله – عن حقيقة هذه المقتضيات السياقية الصوتية من خلال ما أطلق عليه الباحثون(١) في علم الأصوات الحديث بظاهرة المماثلة الصوتية بين حروف اللغة (Assimilation)، في ضوء ما أشار إليه بعض القدماء من علماء اللغة العربية والنحو تحت مسمى (المضارعة الصوتية)(٢)، وهو ما نراه ونعتقده في هذا البحث بناء على ما سنبينه – بإذنه تعالى – في الصفحات القادمة، ومدى تأثير ذلك في حصول هذا التناسب والتوافق والتجانس بين الأجزاء اللغوية في السلسلة الكلامية داخل بنية الكلمة المنطوقة في اللغة العربية خاصة، وكيف نظر إليها علماء النحو والصرف العرب – قدماء ومحدثين – وهم يقننون قواعدهم، وكذا مدى التقارب بيننا وبينهم في التعامل مع هذه الظاهرة اللغوية وفق القوانين الصوتية والقواعد الفنولوجية التي تحكم العملية النطقية الأدائية .

* * *

= SANFORD A، SCHANE طبعة عام ١٩٧٣ م، صفحة: ٤٩.

(١) أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ط٦، مطبعة مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، عام ١٩٨١م، ص، ١٧٨ وما بعدها.

(٢) سيبويه، الكتاب ج ٢، ط١، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، عام ١٣١٧هـ، ٤٢٦ وما بعدها.

تعريف المضارعة الصوتية وأقسامها

تعني المضارعة في كتب اللغة: المشابهة والمقاربة للشيء.

قال في اللسان: والمُضَارِع: المُشْبِه، والمُضَارَعة: المشابهة، والمُضَارَعة للشيء: أن يضارعه كأنه مثله أو شبيهه .

وفي حديث عدي رضي الله عنه قال له: «لا يختلجن في صدرك شيء ضَارَعْتَ فيه النصرانية». المضارعة: المشابهة والمقاربة؛ وذلك أنه لما سأله ﷺ عن طعام النصارى فكأنه أراد لا يتحركن في قلبك شك أن ما شابهت فيه النصارى حرام أو خبيث أو مكروه⁽١⁾.

وورد في مختار الصحاح قوله: والمُضَارَعة: المشابهة⁽٢⁾ .

ويعني مصطلح المضارعة الصوتية بين أصوات اللغة: أن حرفين وردا في لفظة ما ضمن سياق صوتيّ أدائي وحينئذ فلا بد أن يكونا متباعدين أو متماثلين أو متقاربين أو متجانسين في المخرج (الحلق أو اللهاة أو طرف اللسان وأصول الثنايا ...إلخ)، أو في الصفة الصوتية (الجهر أو الهمس أو الاستعلاء أو التفخيم ... إلخ)، أو فيهما كليهما اعتمادا على المحتوى اللغوي، ويقتضي قانون المضارعة الصوتية بين أصوات اللغة: أن الوحدة الصوتية تصبح أكثر شبها (محاكاة) بوحدة صوتية أخرى، أو أن الوحدتين الصوتيتين أو أكثر تصير أكثر شبها بعضها مع بعض ⁽٣⁾،

---

(١) لسان العرب مادة ضَرَعَ، ٨/٢٢٣.

(٢) مختار الصحاح، مادة ضَرَعَ، ١/ ١٥٩.

(٣) انظر كتاب PHONOLOGY لمؤلفه ROGER LASS، ط١، عام ١٩٨٤م، الصفحة ١٧١،

ولذلك فإننا عندما نجد أن صوت التاء ← طاء في صيغة (افتعل) في اللغة العربية من لفظة (طلع) ضمن سياق أدائي، أو في محتوى لغوي فإن ذلك يعني – بسهولة – ميلا إلى نطق حرف التاء بصوت آخر يُضَارِع نطق ذلك الحرف الذي ورد معه في المحتوى اللغوي سواء أكان ذلك في المخرج أم في الصفة الصوتية .

ويسلك هذا الإجراء اللغوي التقريبي بين حروف اللفظة الواحدة مسلكين فهو إما تقدمي أو رجعي، ويتفرع على كل من هذين المسلكين مسلكان آخران فكل واحد منهما إما كلي أو جزئي غير تام (١).

فالمضارعة التقدمية: أن يؤثر حرف سابق في حرف لاحق بأن يكون اتجاه التأثير آتيا من الأمام إلى الخلف، أو باتجاه السهم ← من اليمين إلى اليسار أو على ترتيب الأرقام التالية (١، ٢، ٣، ٤، ٥)(٢)، وأمثلته كثيرة في اللغة العربية، ومن ذلك لفظة مثل " اصتبر " في أصل الصيغة ←في الأداء النطقي " اصطبر " فالحرف الذي عُدِّلَ في السلسلة الكلامية هو حرف التاء، كما أنه يأتِي في ترتيب بناء اللفظة بعد حرف الصاد، فالتأثير إذن حدث من الحرف السابق في الحرف اللاحق، أو أتى من الأمام إلى الخلف، أو باتجاه تيار النفس الصاعد (* ←)، أو من (١ في٢، أو من ١ في ٣، ٢ في ٣، أو من ١ في ٤ ..).

ولو دققنا النظر فيما حدث لاتضح لنا أن هذا التأثير والتعديل لم يكن شاملا بحيث فَنِيَ الحرف المعدل وأبدل من غيره حرف آخر، أو صار مثيلا له سواء بسواء، بل بقي منه بعض الخصائص التي تشير إلى أصله، وهذا ما أطلق

---

(١) أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، الصفحة ١٨٠ وما بعدها، وينظر كذلك كتاب PHONOLOGY لمؤلفه ROGER LASS الصفحات ١٧١وما بعدها،

(٢) LASS,ROGER ،PHONOLOGY ،FIRST ED PP: 171- 175

عليه بعض القدماء(١) من علماء اللغة العربية والنحو – وأعدُّه مذهبا لي – تسمية (المضارعة الصوتية)، وهي هنا تقدمية جزئية غير كاملة، ويطلق عليه البحث الصوتي الحديث بالمماثلة(٢) التقدمية الجزئية – كما سوف نرى ذلك فيما بعد إن شاء الله .

وقد تكون هذه المضارعة التقدمية تامة كلية بحيث يُفني الحرف السابق الحرف اللاحق ولا يبقى منه في اللفظ شيء ينميه إلى أصله ويشير إليه، وحينئذ يُنظر فيه إلى أصل اللفظة التي ورد فيها أهو أصل من أصولها الثلاثية أو الرباعية، أم جاء نتيجة للتعديل في السلسلة الكلامية بين مخارج وصفات الحروف المؤلفة للفظ؟ .

ومن أمثلة ذلك في ألفاظ العربية (اذَّكر) افتعل من الفعل الماضي (ذكر) وأصل التركيب (اذتكر)؛ فتجاور في هذه اللفظة الذال والتاء، وهما متنافران صفة – كما سوف نرى ذلك فيما بعد –؛ فأُشِمَّ حرف التاء شيئا من صفات أخيه الدال وهي صفة الجهر، فنطق به العربي أول أمره (اذدكر) . ثم غُلِّبَ حرف الذال في مرحلة تالية على الصوت الذي هو(وسيط) بين صوت حرف التاء وصوت حرف الدال؛ لكونه حرفا أصيلا في بنية اللفظ، في حين يعد هذا الصوت الوسيط حرفا دخيلا نائبا عن حرف دخيل آخر، وهو حرف التاء،

---

(١) أمثال سيبويه في كتابه الكتاب ج٢، ط١، لاص: ٤٢٣، وابن جني في كتابه سر صناعة الإعراب ج١، ط١، ت: مصطفى السقا وآخرين، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي عام ١٩٥٤م، ص: ٥٦، والمخصص لابن سيده، المجلد ٤، دار الفكر، بيروت، ص: ٢٧١.

(٢) أمثال كتاب الأصوات اللغوية للدكتور، إبراهيم أنيس، ط٦، ص: ١٧٨، وكتاب الأصوات اللغوية للدكتور محمد الخولي، ط١، مكتبة الخريجي، عام ١٤٠٧هـ، ص: ٢١٩ وما بعدها، وكتاب التطور اللغوي للدكتور رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، ص: ٢٢ وما بعدها.

فعدل به – تسهيلا على النطق – إلى حرف الذال، واجتمع في الصيغة ذالان الأول حرف أصيل من بنية اللفظ، والثاني حرف أتي به تسهيلا على النطق، نائب عن حرف دخيل آخر (إذ هو من صيغة افتعل)، وكان الحرف الأول ساكنا، والثاني متحركا فأدغم الحرفان بعضهما في بعض – تجاوزا – ونطق بهما حرفا واحدا مشددا ← (اذّكر) على سبيل المضارعة التقدمية الكاملة، وذلك يجري وفق القاعدة (الفنولوجية) التالية:

/ ت /

/ت/ ←[د] / ←*/ ذ/ المجهورة، على سبيل المضارعة التقدمية الجزئية.

/د/ ←[ذ] / ←*/ ذ/ المجهورة، على سبيل المضارعة التقدمية التامة.

وسيأتي مزيد من الإيضاح والشرح لذلك فيما بعد – إن شاء الله تعالى – .وقد تكون تلك المضارعة رجعية جزئية بأن يؤثر الحرف اللاحق على الحرف السابق تأثيرا جزئيا؛ وذلك بأن يبقى في الحرف المعدل شيء من خصائصه الأولى تنميه إليه وُيستدَل بها عليه، وأمثلته كثيرة في ألفاظ اللغة العربية ومنها قوله تعالى: ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ الغاشية ٢٢، وكذا قوله تعالى: ﴿أهم المسيطرون﴾ الطور – ٣٧، حيث اجتمع في هذا اللفظ الحرفان (السين والطاء) وهما متنافران صفة ومخرجا – كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد –، فقُرِّبَ حرف السين إلى أخيه حرف الصاد، وأُشِمَّ شيئا من صفاته، ليسهل النطق به بجوار حرف الطاء على سبيل المضارعة الرجعية الجزئية فنطقوا به ← بمصيطر، والمصيطرون)، ومثله النطق بكلمة (السراط، والصراط) في قوله تعالى ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ الفاتحة ٦، فالسراط هو الأصل؛ لأنه من سرط الشيء إذا بلغه، وسمي الطريق صراطا لجريان الناس فيه كجريان الشيء المبتلع، فمن قرأه بالسين – وهي قراءة قنبل ورويس – جاء به على الأصل، وقرأه الجمهور بالصاد المحضة، بينما

قرأه خلف(١) بإشمامه شيئا من رائحة الصاد وضارعه بها لتجانس الطاء في الإطباق والاستعلاء(٢)، والسين تشارك الصاد في الصفير والهمس، فلما شاركت الصاد في ذلك قربت منها فكانت مقاربتها لها مجوِّزةً مضارعتها لها وإشمامها بعض صفاتها لتجانس الطاء في الإطباق والاستعلاء، وذلك وفق القاعدة الفنولوجية التالية:

/ س /

/س/ ——◄[ص] *——/ط/، على سبيل المضارعة الرجعية الجزئية.

وقد تكون المضارعة رجعية تامة أو كاملة أو كلية؛ وذلك عندما تقوى صفات الحرف اللاحق، ويطغى تأثيرها على صفات الحرف السابق، فيذوب أكثرها وتكاد تتلاشى كليا أمام نفوذ وتأثير صفات الحرف اللاحق الأقوى، وتصبح كأنها جزء منه، وأكثر شبها به، وحينئذ يُقَرَّب النطق بالحرفين مخرجا وصفة، فيدغم أحدهما في الآخر تجاوزا، ويصبحان حرفا واحدا مشددا، بيد أنه يبقى في أصل اللفظ وتركيبه اللغوي ما يستدل منه على أن ما حصل ليس إدغاما كاملا – وفق شروطه – وإنما هو مضارعة من الحرف اللاحق للحرف السابق مخرجا وصفة، وسوف نرى تفصيلا لذلك فيما بعد .

وأمثلته من اللغة العربية كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ [القمر آية ٢٢]. فأصل اللفظ (مذتكر ◄— مذدكر ◄— مددكر ◄

---

(١) ابن غلبون، أبو الحسن طاهر بن عبد المنعم، التذكرة في القراءات الثمان ج١، ت: أيمن رشدي سويد، ط١، عام ١٤١٢هـ، ص: ٦٥،

(٢) وقرأه حمزة في (الصراط) و (صراط) حيث وقعا بإشمام الزاي، بخلاف عن الضبي في (صراط)، يعني ما لم يكن معرفا بالألف واللام، انظر كتاب التلخيص في القراءات الثمان لمؤلفه الإمام: أبي معشر عبد الكريم الطبري، ت: محمد حسن موسى، ط١، عام ١٤١٢ه.

مدّكر)، ففي المرحلة الأولى، تجاور كل من حرفي الذال والتاء في الصيغة، وبها قرأ ابن مسعود وعيسى وقتادة وأبو عمرو(١)، غير أن بعض العرب وجد صعوبة في النطق بحرف التاء المهموس مجاورا حرف الذال المجهور وليس بينهما فاصل؛ لاختلاف الصفتين بين الحرفين المتجاورين، فأُشِمَّ حرفُ التاء شيئا من صفات أخيه حرف الدال ليسهل النطق به فقيل (مذدكر)، ثم غُلِّبَت صفات حرف الدال على صفات أخيه حرف الذال في مرحلة تالية، وهو خلاف الأصل – كما سوف نرى فيما بعد – فقُرِّبَ منه، وأُشِمَّ شيئا من صفاته، وصار الصوت الوسيط بينهما أكثر شبها به ومضارعة له فنُطِق به قريبا منه، فاجتمع في الصيغة (مددكر) حرفان قُرِّبَ أحدهما من الآخر، ثم أدغم أحدهما– تجاوزا – في الآخر، فأصبحا حرفا واحدا مشددا على سبيل المضارعة الرجعية التامة الكلية الكاملة، فنطقوا بهما (مدّكر) بدال واحدة مشددة، وبها قرأ الجمهور(٢)، بيد أنه بقي في اللفظة ما يستدل منه على أصل التركيب ولم يكن من نوع الإدغام بين الحرفين المتماثلين في كل شيء (مخرجا وصفة) على ما سنوضحه فيما بعد، خلافا لما ذهب إليه ابن جني من أنه إبدال إدغام(٣). وذلك على النحو التالي:

/ ت /

/ت/ ←[د] / ــــ*/ ذ / على سبيل المضارعة التقدمية الجزئية.

/ذ/ ←[د] / *ــــ[د]، على سبيل المضارعة الرجعية الكاملة.

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ط٣، مصورة عن مطبعة مولاي السلطان عبد الحفيظ سليمان المغرب، ١٧٨/٨،

(٢) نفسه ١٧٨/٨،

(٣) سر صناعة الإعراب ج١، ص: ٢٠٢.

دواعي المضارعة الصوتية بين الحروف في اللغة العربية

يحسن بنا أن نستعرض دواعي وأسباب حصول هذه المضارعة بين حروف اللغة – عامة – واللغة العربية خاصة على النحو الذي أشرنا إلى بعضه سابقًا، فنقول أولا إن الكلام نشاط مَثَلُه في ذلك مثل أي نشاط آخر يقوم به الإنسان سواء أكان نشاطا حركيا أم ذهنيا، وهو بهذا يتطلب طاقة لِيُنَفَّذَ عن طريقها، وكلما استطاع المتكلم أن يقتصد في هذه الطاقة ليحولها إلى أمور أكثر أهمية في حياته فإنه يفعل، فإذا وجد – مثلا – أن حرفا ما في لفظة ما في لغته صعبا في النطق فإنه يتلمس أيسر الطرق بحثا عن السهولة، ويسلك المتكلم في ذلك مسالك متعددة يعترف بها نظام اللغة البشرية المنطوقة ويقرها، فقد يبدل حرفا من آخر، وقد يحذف، وربما خالف في ترتيب الحروف داخل اللفظة، وأحيانا يقحم حرفا جديدا بين حروف الكلمة، وتعد ظاهرة المضارعة الصوتية بين أصوات الحروف في كثير من اللغات العالمية عامة، واللغة العربية خاصة واحدة من تلك الطرق التي يلجأ إليها المتكلم في اللغة بحثا عن السهولة في النطق، والاقتصاد في المجهود العضلي ما أمكن، ولكن كيف تتم هذه العملية النطقية ؟. وللإجابة عن ذلك نقول: إن حرفا لغويا ما يميل إلى أن يضارع حرفا آخر في اللغة نفسها، أو يصبح أكثر شبها به مخرجا أو صفة أو كليهما ليسهل النطق به، يقودنا إلى الحديث عن أوجه هذه المضارعة والمشابهة ومسبباتها بين حروف اللغة العربية التي تنحصر ظاهريا في المخارج والصفات .

ففيما يتعلق بالمخارج لحروف هذه اللغة نجد أن جمهور أهل الأداء (وهم القراء) يصنفونها – عامة – في خمسة مواضع، ويوزعونها – تفصيلا – إلى سبعة عشر مخرجا(١) وهي:

---

(١) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر ج١، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت، ص: =

الموضع الأول: الجوف: وهو الخلاء الداخل في الفم•، وفيه مخرج واحد وهو مخرج حروف المد الثلاثة، وهي الألف ولا يكون ما قبلها إلا مفتوحا دائما كـ(قال). والواو الساكنة المضموم ما قبلها كـ(قالوا). والياء الساكنة المكسور ما قبلها كـ(قيل). وهذه الحروف ليس لها حيز محقق تنتهي إليه كما كان لسائر الحروف غيرها بل تنتهي بانتهاء الصوت؛ ولذا قبلت الزيادة على المد الطبيعي .

الموضع الثاني: الحلق؛ وفيه ثلاثة مخارج لستة أحرف وهي:

أ. أقصى الحلق: أي أبعده مما يلي الصدر ويخرج منه الهمزة والهاء .

ب. المخرج الثاني: وسط الحلق ويخرج منه العين والحاء .

ج. المخرج الثالث: أدنى الحلق أي أقربه مما يلي الفم ويخرج منه الغين والخاء.

الموضع الثالث: اللسان؛ وفيه عشرة مخارج لثمانية عشر حرفا، وله أربعة أقسام: طرف وحافتان ووسط وأقصى:

أ. طرف اللسان أو رأسه مما يلي الشفتين والثنايا من الأسنان وآخره ويسمى ذلق اللسان .

= ١٩٩ وما بعدها.

• هكذا يذهب بعض القدماء من علماء اللغة العربية والنحو والقراءات، ويرى ابن جني أن الصوت الذي يجرى في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو، والعلة في ذلك أنك تجد الفم والحلق في ثلاث الأحوال مختلف الأشكال، أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصواب بضغط أو حصر، وأما الياء فتجد معها الأضراس سفلا وعلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته وتفاح الحنك عن ظهر اللسان فجرى الصوت متصعدا هناك فلأجل تلك الفجوة ما استطال؛ وأما الواو فتضم لها معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس ويتصل، سر صناعة الإعراب ٨/١، وهذا يشير بوضوح إلى أن هناك مخارج ومدارج لأصوات الحركات.

ب. حافة اللسان: أي جانبه فللسان حافتان يمنى ويسرى

ج. وسط اللسان .

د. أقصى اللسان مما يلي البلعوم والحلق .

١. فمن أقصى اللسان مما يلي الحلق وما فوقه من الحنك الأعلى مما يدعى بشراع الحنك أو الحنك الرخو يخرج حرف القاف .

٢. ومن أقصاه ولكن من أسفل مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى تحت مخرج القاف قليلا يخرج حرف الكاف.

٣. ومن وسط اللسان وما يليه من الحنك الأعلى يخرج ثلاثة أحرف وهي الجيم فالشين فالياء غير المدية، وهي المتحركة مطلقا أو الساكنة بعد فتح كخير وشيء.

٤. ومن إحدى حافتي اللسان وما يليها من الأضراس العليا التي في الجانب الأيسر أو الأيمن يخرج حرف واحد وهو الضاد المستعلية المستطيلة، وخروجها من الحافة اليسرى أكثر وأيسر، ومن اليمنى أصعب وأقل.

٥. ومما بين حافتي اللسان معا وما يحاذيهما من اللثة (أي لثة الضاحكين والنابين والرباعيتين والثنيتين) يخرج حرف اللام وليس في الحروف أوسع مخرجا منه، ويمكن خروجها من إحدى حافتي اللسان والحافة اليمنى أسهل .

٦. ومما بين رأس اللسان وما يحاذيه من لثة الثنيتين العليين ويخرج منه النون المظهرة.

٧. ومن طرف اللسان مع ظهره بالقرب من مخرج النون وما يحاذيه من لثة الثنيتين العليين يخرج حرف الراء .

٨. ومن طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا يخرج ثلاثة أحرف وهي: التاء والدال والطاء .

٩. ومن طرف اللسان وفوق الثنايا السفلى مع إبقاء فرجة قليلة بين طرف اللسان والثنايا عند النطق يخرج ثلاثة أحرف: الصاد فالزاي فالسين .

١٠. ومن بين طرف اللسان من جهة ظهره وأطراف الثنايا العليا تخرج ثلاثة أحرف هي على الترتيب من الأسفل إلى الأعلى الثاء والذال والظاء

الموضع الرابع: الشفتان وفيهما مخرجان لأربعة أحرف فيخرج من الأول حرف واحد، ومن الثاني ثلاثة أحرف وهي:

١. باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا ويخرج منه الفاء.

٢. ما بين الشفتين معا ويخرج منه ثلاثة أحرف وهي الواو غير المدية بانفتاح الشفتين، الباء بانطباق الشفتين انطباقا أقوى، الميم بانطباق الشفتين انطباقا أخف من انطباقهما مع الباء .

الموضع الخامس: الخيشوم وهو خرق الأنف المنجذب إلى داخل الفم المركب فوق سقف الفم (أقصى الأنف) وتخرج منه أحرف الغنة وهي النون والميم وما جرى مجراهما حال إدغامهما بغنة أو إخفائهما أو كون النون والميم مشددتين حيث يتحول مخرجهما الأصلي إلى الخيشوم .

أما يتعلق بصفات الحروف في اللغة العربية فهي عند أهل الأداء (وهم القراء) كيفية عارضة للحرف عند النطق به أو حصوله في المخرج كجريان النفس في الحروف المهموسة، وعدم جريانه في الحروف المجهورة... وما أشبه ذلك. وهي سبع عشرة صفة على القول المشهور(١)، وعشرون صفة على القول الراجح(٢)، وتنقسم هذه الصفات من حيث اللزوم للحرف وعدمه إلى قسمين:

صفات أصلية طبيعية أساسية لازمة للحرف بمعنى أنها لا تنفك عنه ألبتة في جميع أحواله كالهمس والجهر والاستعلاء والانفتاح . وصفات طارئة عرضية غير لازمة للحرف ولكنها تعرض له أحيانا إذا توفرت أسباب حدوثها، وتنفك

---

(١) المرصفي، عبد الفتاح، هداية القارئ إلى تجويد كلام الباري، ط١، عام ١٤٠٢هـ، ص: ٧٧.

(٢) نصر، عطية قابل، غاية المريد في علم التجويد، ط٧، عام ١٤١٣هـــ، ص: ١٣٨.

عنه أحيانا كثيرة لعدم توفر تلك الأسباب كالإدغام والتفخيم والترقيق (١).

كما أنها تنقسم إلى قسمين من حيث الضد وعدمه فهناك خمس صفات متضادة، وسبع صفات – على القول المشهور – وتسع صفات – على القول الراجح – غير متضادة وهي كالآتي:

أولا: الصفات المتضادة: وهي خمس صفات في مقابل خمس أخرى: الجهر # الهمس، الشدة والتوسط # الرخاوة، الاستعلاء # الاستفال، الإطباق # الانفتاح، الإذلاق # الإصمات .

ثانيا: الصفات التي لا أضداد لها وهي: الصفير، القلقلة، الانحراف، والتكرير، واللين، والتفشي، والاستطالة – على القول المشهور – والإخفاء والغنة – على القول الراجح – وتفصيلها كالآتي:

أولا: الصفات المتضادة:

١. الجهر: وهي عند القدماء من علماء اللغة العربية والنحو والقراءات حرف أشبع الاعتماد من موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت فكأن فيه جهرا أي إعلان وإظهار؛ ولذا سمي مجهورا، وهو عند المحدثين حرف تذبذب معه الأوتار الصوتية عند النطق به(٢) تذبذبا محسوسا وملحوظا، وحروفه تسعة عشر حرفا من حروف الهجاء يجمعها قول بعضهم (عظم وزن قارئ غض ذي طلب جد).

٢. الهمس: وهي ضد الجهر وهي تعني: عند القدماء من اللغويين والنحاة والقراء: حرف أضعف الاعتماد عليه في المخرج حتى جرى النفس معه فكأن فيه خفاء؛ ولذا سمي مهموسا، وهو عند المحدثين من الباحثين الصوتيين:

---

(١) هداية القارئ، ط١، ص: ٧٧،

(٢) أنيس، الأصوات اللغوية ط٦، ص: ١٩ وما بعدها،

حرف لم تتذبذب معه الأوتار الصوتية عند النطق به(١) تذبذبا محسوسا وملحوظا، وحروفه عشرة يجمعها قول بعضهم (سكت فحثه شخص) .

٣ . الشدة و التوسط: وضدهما الرخاوة وتعني الشدة عند أهل الأداء من اللغويين والقراء: لزوم الحرف لمخرجه فيمنع الصوت من أن يجري فيه؛ ولذا سمي الحرف شديدا، وحروف الشدة ثمانية مجموعة في قول بعضهم (أجد قط بكت)، وهذه الحروف في لزومها لمخرجها وانحباسها فيه وتوقف الصوت من أن يجري مع الحرف تسلك ثلاثة مسالك:

١ . انحباس الصوت من أن يجري مع الحرف عند النطق .

٢ . إن هذا الحبس قد يطول وقد يقصر .

٣ . تسريح هذا الصوت بعد انحباسه، فإن كان هذا التسريح فجائيا أعقب هذا التسريح انفجار ودوي وذلك مع الحروف الشديدة الوقفية الانفجارية، وإن كان التسريح تدريجيا لم يعقب هذا التسريح دوي وانفجار وذلك مع الحروف الشديدة الوقفية غير الانفجارية (٢).

٤ . أما الحرف الرخو عند أهل الأداء فهو ذلك الحرف الذي يجري فيه الصوت . وأما الحرف المتوسط فإنه الذي يجمع بين صفات الحرف الشديد وصفات الحرف الرخو حيث يبدأ النطق به بانحباس الحرف في المخرج وقبل أن يستوي هذا الانحباس يجري الصوت فيه، وعدد حروف التوسط – على القول الراجح – ثمانية مجموعة في قول بعضهم (لم يرو عنا)، وما سوى هذه الحروف والتي قبلها هي الحروف الرخوة.

---

(١) نفسه، ص: ٢٠ وما بعدها.

(٢) المباركي، يحيى علي، المقطع الصوتي العربي بين الكمية والمدة الزمنية (دراسة أكوستيكية تطبيقية)، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ص: ٢٤٨، ٣١٦،

٥. الاستعلاء:وهو عند أهل الأداء من اللغويين والنحاة والقراء ذهاب اللسان إلى الحنك الأعلى (سقف الفم) وجريان الصوت بينهما دون انحصار عند النطق بحروفه؛ ولذا سميت هذه الحروف حروفا مستعلية، وهي سبعة حروف مجموعة في قول بعضهم (خص ضغط قظ)، وهذه الحروف هي حروف التفخيم على القول الراجح، وأقواها جميعا حرف الطاء ثم القاف .

٦. الاستفال: ويعنون به ذهاب اللسان وانحطاطه إلى قاع الفم عند النطق بحروفه، وهي ما عدا حروف الاستعلاء والتفخيم والإطباق.

٧. الإطباق: وهو انطباق طائفة من اللسان على ما يحاذيها من غار الحنك الأعلى، وانحصار الصوت بينهما عند النطق بحروفه وهي أربعة: الصاد والضاد والطاء والظاء؛ ولذا سميت هذه الحروف الأربعة مطبقة . يقول ابن جني ((ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا، والصاد سينا، والظاء ذالا، ولخرجت الضاد عن الكلام لأنه ليس من موضعها شيء غيرها فتزول الضاد إذا عدمت الإطباق إليه)) .

٨. الانفتاح: هو عند أهل الأداء تجافي كل من طائفتي اللسان والحنك الأعلى من الأخرى حتى يخرج الصوت من بينهما دون إحصار عند النطق بحروفه، وهي ما عدا حروف الإطباق الأربعة .

٩.الإذلاق أو الانذلاق: وهو عند أهل الأداء (وهم القراء): سرعة النطق بالحرف لخروجه من ذلق اللسان (طرفه) أو من ذلق الشفة (طرفها)، وحروفه سبعة مجموعة في قولهم (فر من لب) فالفاء والميم والباء تخرج من طرف الشفة، والراء والنون واللام تخرج من طرف اللسان .

١٠. الإصمات: وهي عند أهل الأداء من القراء: ثقل الحرف بخروجه من غير ذلق اللسان والشفة، وامتناع حروفها لأجل ذلك من أن يبنى منها وحدها في كلام العرب كلمة رباعية أو خماسية لثقلها على اللسان. وحروفها ثلاثة وعشرون حرفا وهي باقي الحروف غير الذلقية .

ثانيا: الصفات غير المتضادة:

١. الصفير: صوت يشبه صفير الطير، يخرج مع النطق بحروفه، وهي ثلاثة: الصاد والزاي والسين، وأقوى تلك الحروف صفيرا الصاد لاستعلائها وتفخيمها وإطباقها ثم الزاي لجهرها ثم السين لهمسها .

٢. القلقلة: وهي صويت زائد يحصل في المخرج ناتج عن اضطراب اللسان بالحرف عند النطق بحروفها حتى تسمع له نبرة قوية، وحروفها – على القول الراجح – خمسة مجموعة في قول بعضهم " قطب جد "، ومن صفات هذه الحروف الشدة والجهر، فالجهر يمنع النفس من أن يجري معها، والشدة تمنع الصوت أن يجري معها، فلما امتنع جريان الصوت والنفس مع حروفها احتيج إلى التكلف في بيانها بإخراجها شبيهة بالمتحرك، وأقوى هذه الحروف قلقلة هي الطاء ثم القاف والجيم ثم الباقي، وقيل القاف ثم الطاء . والقلقلة – بهذا المفهوم الذي شرحناه سابقا – أبين في الساكن الموقوف عليه ثم الساكن الموصول ولكنها – على التحقيق – لازمة لكل هذه الحروف الخمسة ساكنة كانت أم متحركة موقوفا عليها بالسكون أم كانت في وصل الكلام .

٣. الانحراف: ومعناها عند أهل الأداء ميل الحرف بعد خروجه إلى طرف اللسان أو ظهره وله حرفان اللام والراء، وهذه الصفة لازمة لهذين الحرفين لانحرافهما عن مخرجهما حتى يتصلا بمخرج غيرهما، فاللام تميل إلى ناحية طرف اللسان والراء إلى ظهره .

٤. التكرار: ويعنون به ارتعاد طرف اللسان عند النطق بحرفه وهو الراء.

٥. التفشي: كثرة انتشار خروج النفس بين اللسان والحنك وانبساطه في الخروج عند النطق بالحرف حتى يتصل بمخرج الظاء، وتتحقق هذه الصفة – على الأرجح – في حرف الشين فقط.

٦. الاستطالة: وتعني عند أهل الأداء: امتداد الصوت من أول إحدى

حافتي اللسان إلى آخرها، وحرفها الوحيد هو الضاد القديمة.

٧. اللين: ويعنون به خروج الحرف عند النطق به بسهولة من غير كلفة على اللسان وله حرفان في اللغة العربية وهما الواو والياء إذا سكنتا وفتح ما قبلهما.

٨. الخفاء: ويعنون به خفاء صوت الحرف عند النطق به، وحروفه أربعة وهي حروف المد الثلاثة (الواو والياء والياء) ثم الهاء، أما الخفاء في حروف المد فلسعة مخرجها، وليس لها مخرج ثابت في الفم والحلق بل هي هوائية جوفية، وأما الخفاء في الهاء فلاجتماع صفات الضعف فيها؛ ولذا قويت بالصلة إذا كانت ضميرا.

٩. الغنة: وهي صوت يخرج من الخيشوم، وهو خرق الأنف المنجذب إلى داخل الفم – وقد شرحناه سابقا ــ، وهذه صفة لازمة للنون والميم وما جرى مجراهما سكنتا أو تحركتا، ظاهرتين أو مدغمتين أو مخفاتين .

وبعض هذه الصفات أقوى من بعضها الآخر، فالجهر والشدة والاستعلاء والإطباق والصفير والقلقلة والانحراف والتكرار والتفشي والاستطالة والغنة، هي صفات قوة . والهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح واللين والخفاء، هي صفات ضعف، في حين تعد كل من صفات الإصمات والذلاقة والبينية صفات متوسطة بين القوية والضعيفة (١) . ويعد الحرف قويا إذا جمع صفات القوة السابقة كلها . ويعد الحرف ضعيفا إذا اشتمل على صفات الضعف أكثر من صفات القوة التي ذكرت سابقا، بينما يعد الحرف قويا إذا حوى من صفات القوة أكثر من صفات الضعف، ويعد وسطا إذا جمع بين صفات القوة والضعف في آن واحد. وذلك كما نراه في الجداول التالية:

---

(١) هداية القارئ، ط١، ص: ٩٣،

صفات قوة	صفات الضعف	صفات التوسط
الجهر	الهمس	الإصمات
الغنة	الخفاء	الذلاقة
الاستعلاء	الاستفال	البينية
الشدة	الرخاوة	
الإطباق	الانفتاح	
الصفير	اللين	
القلقلة		
الانحراف		
التكرار		
التفشي		
الاستطالة		

توزيع الحروف العربية كما جاء بها النظام الصوتي العربي على صفاتها الأصلية المتضادة وغير المتضادة:

أولا: الصفات الأصلية غير المتضادة:

الحروف	صفير	قلقلة	لين	انحراف	تكرير	تفشي	استطالة	خفاء	غنة
ء	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ه	—	—	—	—	—	—	—	+	—
ع	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ح	—	—	—	—	—	—	—	—	—
غ	—	—	—	—	—	—	—	—	—

الحروف	صفير	قلقلة	لين	انحراف	تكرير	تفشي	استطالة	خفاء	غنة
خ	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ق	—	+	—	—	—	—	—	—	—
ك	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ي	—	—	+	—	—	—	—	—	—
ش	—	—	—	—	—	+	—	—	—
ج	—	+	—	—	—	—	—	—	—
ض	—	—	—	—	—	—	+	—	—
ل	—	—	—	+	—	—	+	—	—
ن	—	—	—	—	+	—	—	—	+
ر	—	—	—	+	+	—	—	—	—
ص	+	—	—	—	—	—	—	—	—
ز	+	—	—	—	—	—	—	—	—
س	+	—	—	—	—	—	—	—	—
ط	—	+	—	—	—	—	—	—	—
د	—	+	—	—	—	—	—	—	—
ت	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ظ	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ذ	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ث	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ف	—	—	—	—	—	—	—	—	—
و	—	—	+	—	—	—	—	—	—

الحروف	صفير	قلقلة	لين	انحراف	تكرير	تفشي	استطالة	خفاء	غنة
م	—	—	—	—	—	—	—	—	+

ثانيا: الصفات الأصلية المتضادة

الحروف	جهر	همس	شدة	رخاوة	استعلاء	استفال	انفتاح	إطباق	إصمات	إذلاق	توسط
ء	+	−	+	−	−	+	+	−	+	−	−
ه	−	+	−	+	−	+	+	−	+	−	−
ع	+	−	−	−	−	+	+	−	+	−	+
ح	−	+	−	+	−	+	+	−	+	−	−
غ	+	−	−	+	+	−	+	−	+	−	−
خ	−	+	−	+	+	−	+	−	+	−	−
ق	+	−	+	−	+	−	−	−	+	−	−
ك	−	+	+	−	−	+	+	−	+	−	−
ي	+	−	−	+	−	+	+	−	+	−	−
ش	−	+	−	+	−	+	+	−	+	−	−
ج	+	−	+	−	−	+	+	−	+	−	−
ض	+	−	−	+	+	−	−	+	+	−	−
ل	+	−	−	+	−	+	+	−	−	+	+
ن	+	−	−	−	−	+	+	−	−	+	+
ر	+	−	−	−	−	+	+	−	−	+	+
ص	−	+	−	+	+	−	−	+	+	−	−
ز	+	−	−	+	−	+	+	−	+	−	−
س	−	+	−	+	−	+	+	−	+	−	−

الحروف	جهر	همس	شدة	رخاوة	استعلاء	استفال	انفتاح	إطباق	إصمات	إذلاق	توسط
ط	+	–	+	–	+	–	–	+	+	–	–
د	+	–	+	–	–	+	+	–	+	–	–
ت	–	+	+	–	–	+	+	–	+	–	–
ظ	+	–	–	+	+	–	–	+	+	–	–
ذ	+	–	–	+	–	+	+	–	+	–	–
ث	–	+	–	+	–	+	+	–	+	–	–
ف	–	+	–	+	–	+	+	–	–	+	–
و	+	–	–	+	–	+	+	–	+	–	+
م	+	–	–	–	–	+	+	–	–	+	+

ويؤدي تجاور بعض الحروف مع بعض داخل الألفاظ إلى تأثير أصوات هذه الحروف بعضها في بعض تأثيرا يفضي بها إلى التقارب في الصفة أو المخرج تحقيقا للتناسب الصوتي، وتيسيرا لعملية النطق واقتصادا في الجهد العضلي – وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا–، ولتحقيق هذه الغاية فلا بد أن تتسق أصوات هذه الحروف بعضها مع بعض، فإذا تجاور حرفان أو أكثر، وأدى تجاورها إلى ثقل ما عند النطق بها داخل الصيغة صار لزاما أن يتغير نطق أحد هذه الحروف أو أكثر إلى نطق الحرف الآخر لتخف حروف اللفظ على اللسان ويسهل النطق بها .

وقد يوصف هذا التقريب أو التناسب أو التجانس الصوتي بين حروف اللغة بالتعديلات الملائمة للحرف بسبب مجاورته أو ملاصقته لما يضارعه من حروف أخرى، وقد يحصل هذا التوافق والتلاؤم بين الحروف المنفصلة داخل اللفظ، ولكنه غالبا ما يحدث بين الحروف المتصلة بسبب القرب والمجاورة، حيث يلاحظ في علم التصنيف اللغوي أن أعلى مراتب المحاكاة أو المضارعة بين الأصوات

الكلامية في سياق حر، ما يدعى بالمضارعة بسبب من الملاصقة المباشرة[1]، وهنا لابد من التأكيد على حقيقة هامة وهي أن الحرفين المتتابعين في الكلام لا يلزم أن يكونا متماثلين تمام التماثل كراء وراء أو باء وباء أو حاء وحاء . بل قد يكونان مختلفين مخرجا وصفة كخاء ودال أو تاء وميم أو سين وقاف، وقد يتقاربان في كل شيء ما عدا صفة صوتية واحدة كحاء وهاء في مثل (اذبح هذه)، وربما تجانسا في المخرج واختلفا في الصفة كثاء وذال في مثل (يلهث ذلك)، وبناء عليه نرى أن صور تجاور الحروف اللغوية في محتوى لغوي ما تكون أربعا:

أ. الصورة الأولى: اشتمال الكلمة على حرفين متماثلين تمام المماثلة، ويعنى القراء بهذه المماثلة: اتحاد الحرفين أو الحروف في الاسم والرسم مثل الكافين في نحو ﴿ما سلككم في سقر﴾ [المدثر ٤٢] والميمين في نحو ﴿الرحيم * مالك﴾ [الفاتحة ٣-٤][2].

ب . الصورة الثانية: اشتمال الكلمة على حرفين أو حروف متباعدة نطقا في المخرج ومختلفة في الصفة وهذا هو الغالب في الكلام وذلك مثل خاء ودال، وتاء وميم، وسين وقاف[3] .

ج. الصورة الثالثة: اشتمال الكلمة على حرفين أو حروف متقاربة نطقا في المخرج والصفة كنون ولام أو في المخرج دون الصفة كدال وسين، أو في الصفة دون المخرج كسين وشين[4].

د . الصورة الرابعة: اشتمال الكلمة على حرفين أو حروف متجانسة

---

[1] ينظر كتاب phonology لمؤلفه lass ط١، عام ١٩٨٤م، ص: ١٧١-١٧٢،

[2] نفسه ص: ٢١٧.

[3] نفسه ص: ٢٢٣.

[4] نفسه ص: ٢١٩.

نطقا بأن تتفق هذه الحروف في المخرج وتختلف في الصفة كالطاء مع التاء، والدال مع التاء، والثاء مع الذال(١).

ففي حالتي التماثل أو التباعد التامين بين الحرفين أو الحروف في البنية اللغوية فلا مضارعة – بالمعنى الذي شرحناه سابقا – بل هو إدغام أو إظهار واجبان .

أما في حالتي التقارب والتجانس بين الحرفين أو الحروف داخل البنية اللغوية فإن أحد هذين الحرفين أو الحروف يؤثر في الآخر ويمنحه شيئا من خصائصه أو بعضا منها، وذلك هو ما أعده – جريا على فهم القدماء من علماء اللغة العربية والنحو – في حالتيه بـــ(ظاهرة المضارعة بين الأصوات اللغوية)، وهي نزعة تنشأ عندهم بين نطق الحرفين أو الحركتين داخل الصيغة، وتتصف عادة بصفات صوتية متقاربة أو متجانسة تساعد على سهولة النطق في حالة تتابع هذين الحرفين أو الحركتين في اللفظ إذا كان بينهما من التباين والاختلاف مخرجا أو صفة أو كليهما ما ينفر كلا منهما من الآخر(٢).

* * *

---

(١) نفسه ص: ٢٢١،

(٢) ينظر إلى مزيد من التفصيل حول الحرفين المتلاقيين خطا ولفظا من جميع وجوهه سواء أكانا متماثلين أو متقاربين أو متجانسين أم متباعدين، وقد يلتقيان في كلمتين مثل " اضرب بعصاك " و " إنه هو "، وقد يكونان من كلمة " مثل " ما سلككم "،،، أنظر كتاب غاية المريد في علم التجويد ط٤، ص ص: ١٧١ وما بعدها.

أولا: المضارعة الصوتية بين الحروف الصحيحة الساكنة

ولنتأمل هذه الألفاظ العربية لنتبين– جليا– كيف تتواءم وتتآلف الحروف داخل بنية الكلمة تبعا لما سبق، ولنقف على ضوابطها وقواعدها .

	١. الدرجة الصوتية الأولى	٢. الدرجة الصوتية الثانية
أ.	سُقْتُ	صقت
	سَاطِع	صاطع
	أَصْدَرَ	أزدر
	سَلَخَ	صلخ
	سَبَقْتُ	صبقت
	سَوِيقٌ	صويق
	السَّمْلَقُ	الصملق
	قَصْد	قزد
ب.		
	وَتَد	ودّ
	فَحَصْتُ	فحصط
	خَبَطْتُ	خبطٌ
	يَتَطَهَّر	يطَّهر
	اصْتَبَرَ	اصطبر
	اصْتَلَحَ	اصَّلح
	إزْتَجَرَ	ازدجر
	اظْتَلَمَ	اظطلم

نلاحظ في رقم (أ) أن الدرجة الصوتية الأولى لتلك الألفاظ اشتملت

على حروف بين بعضها تنافر، أو اختلاف سواء أكان ذلك ناشئا عن المخرج أم الصفة مما اقتضى حدوث تعديل ما لتتواءم، وتتآلف أصوات الحروف داخل بنية الكلمات في الدرجة الصوتية الثانية على ألسنة بعض أبناء القبائل العربية القديمة ولا سيما القاطنون على مشارف الصحراء الذين يميلون في كلامهم إلى القوة في اختيار الألفاظ، ويفضلون الاقتصاد في المجهود العضلي، فالكلمات

(سقت، سبقت، والسويق، والسملق) اشتملت على حرفين متنافرين في الصفة، وهما السين والقاف سواء تجاورا داخل البنية أم انفصل بعضهما عن بعض، فالقاف حرف قوي؛ إذ هو من الحروف المجهورة الشديدة والوقفية الانفجارية ومن حروف القلقلة، وهو فوق ذلك كله حرف مستعل مفخم، وينطق به من أقصى اللسان، فتصعدت إلى ما فوقها من الحنك، وهذه كلها صفات قوة – كما أوضحنا ذلك في الجداول المرفقة –، ولم يستطع السين أن يجاريه في هذا الشأن ويبقى معه في السياق وهو المختلف عنه في هذه الصفات؛ إذ هو حرف مهموس مستفل منفتح، وهذه صفات ضعف، والحروف في سلوكها داخل بنية الكلمة كالكائنات الحية؛ إذ لابد أن يخضع الضعيف لسيطرة ونفوذ القوى فيصطبغ ببعض صفاته تارة، ويضارعه ويحاكيه مرات لكي يضمن بقاءه واستمراره في بيئته ومكانه، أو يتغير جملة وتفصيلا ويصبح حرفا آخر، ومن هنا عمد حرف السين إلى تعديل بعض صفاته ليساير نفوذ وقوة حرف القاف، ففزع إلى أقرب الحروف إليه يطلب المدد والمساعدة في مواجهة تأثير حرف القاف سواء بسواء كما يتصرف الكائن الحي في صراعه مع خصومه في هذا الكون، فوجد أخويه حرفي الصاد والزاي اللذين يشترك معهما في المخرج – بعامة – وفي صفة الصفير – بخاصة –، وهما أقوى منه في بعض الصفات، فخلع على نفسه بعض صفات أخيه حرف الصاد دون حرف الزاي مع اتصافه بصفة الجهر لاشتراك كل من حرفي القاف والصاد دون الزاي في أكثر من

صفة؛ إذ هما من حروف الاستعلاء والتفخيم، فأُشِمَّ السين بعض صفات أخيه الصاد فنُطِقَ به قريبا من نطق الصاد المستعلي المفخم، وهو أشبه الأصوات بصفات حرف القاف المستعلي المفخم؛ ليكون العمل من وجه واحد، ولم يبالوا ما بين السين والقاف من الحواجز؛ وذلك لأنها أثرت فيها على بعد المخرجين، فكما لم يبالوا بعد المخرجين لم يبالوا ما بينهما من الحروف إذ كانت تقوى عليهما والمخرجان متفاوتان، ويقوّي ذلك ما ورد من قراءة الأعشى لقوله تعالى ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ [الإسراء ٣٥، والشعراء–١٨٢] بالصاد في السورتين(١)، وتنسب هذه اللغة إلى بني العنبر من القبائل العرب القديمة (٢)، وهو يسير وفق القاعدة الفنولوجية التالية:

/س/
/س/ ← [ص]/ *—/ق/ على سبيل المضارعة الرجعية الجزئية .

وهي تعني:

/ س /	+ مهموسة	← [ص]	+ مهموسة	*/—/ق/
	+ منفتحة		+ مطبقة	
	+ مستفلة		+ مستعلية	
	+ صفير		+ صفير	

وكان ذلك على سبيل المضارعة الرجعية الجزئية

وهذا الإشمام (بمعنى اكتساب رائحة حرف ما)، أو خلع بعض الصفات على حروف أخرى أحيانا هو ما يوضح حقيقة المضارعة أو المحاكاة بين أصوات حروف الكلمة، وليس ما عبر عنه بعض القدماء من علماء اللغة العربية والنحو

---

(١) التذكرة ج٢، ط١، ص: ٤٠٥،

(٢) المخصص لابن سيده مجلد ٤، ص: ٢٧٢،

وبعض الباحثين المحدثين من أنه إبدال أو قلب أو تماثل – كما سوف نراه – وهذه المحاكاة أو المضارعة بين الحروف – بهذه الكيفية – يحقق نوعا من التناسب الصوتي بين الحروف داخل بنية الكلمة، ويلزم ذلك أن تتسق الحروف بعضها مع بعض؛ بحيث إذا تجاور حرفان متنافران يؤدي نطقهما إلى شيء من الثقل فلا مناص حينئذ من تعديل أحدهما في الصفات أو المخارج لتقل مظاهر الخلاف بينهما، وليسهل عن اللسان النطق بهما.

وما قيل عن تلك الألفاظ يقال– أيضا – على الألفاظ الباقية في المجموعة نفسها (ساطع، أصدر، سلخ، قصد) حيث نلاحظ أن الكلمتين (ساطع، سلخ) قد اشتملتا – في بنيتهما – على حروف بينهما تنافر في بعض الصفات، وهي (السين والطاء والخاء)، وقد أوضحنا سابقا أن السين حرف ضعيف؛ لاتصافه بصفات الهمس والاستفال والانفتاح، بينما الطاء في كلمة (ساطع) حرف قوي؛ لاتصافه بكثير من صفات القوة؛ فهو حرف مجهور، شديد وقفي انفجاري من حروف القلقلة، ومستعل ومفخم ومطبق، ولذلك لم يستطع بعض أبناء القبائل العربية القديمة؛ التي كانت تقطن على تخوم البادية، وتميل– في لغتها– إلى اختيار الألفاظ القوية والاقتصاد في المجهود العضلي – وهم بنو العنبر – أن ينطق حرف السين بجوار حرف الطاء في أمثال هذه الكلمات، بل عمدوا إلى إشمامه بعض صفات القوة ؛التي تكون لأخواته، ويشترك فيها مع حرف الطاء، حتى يسهل على المتكلم أن ينطق بالحرفين بالقوة نفسها، وكما قلت – سابقا – إن حرف السين يشترك مع حرفي الصاد والزاي في المخرج وفي الصفير، وهو غير قادر أن يبقى في بيئته اللغوية داخل بنية هذه الكلمات إلا أن يستعير بعض صفات أخويه القوية، فعمد إلى حرف الصاد، فتشبه ببعض صفاته دون حرف الزاي، مع أنه حرف مجهور، وذلك لما بين حرفي الصاد والطاء من الصفات المشتركة، وهي الاستعلاء والتفخيم والإطباق، وليس حرف الزاي كذلك بل

هو مجهور فقط؛ ولذلك ناسب إشمام حرف السين صفات حرف الصاد (الاستعلاء والتفخيم والإطباق) لتقريب هذه الصفات بعضها من بعض؛ حتى يبقى حرف السين في مكانه دون إفناء أو إبدال، وذلك وفق القاعدة (الفنولوجية) التالية:

/ س /

/ س / ⟵ [ص]/ * ⟵ /ط/، على سبيل المضارعة الرجعية جزئية .

وهي تعني:

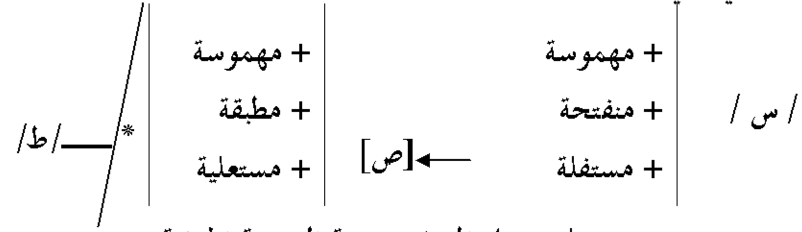

على سبيل المضارعـــة الرجعية الجزئية

و يعد هذا الإجراء سبيلا واحدا من سبل المضارعة والمحاكاة بين صفات حروف الكلمة المتنافرة؛ لكي تتسق في النمط اللغوي، ولعل مما يعضد ذلك قراءة الأعشى بالصاد في كل من قوله تعالى ﴿لئن بسطت إليّ يدك ما أنا بباسط يدي إليك﴾ المائدة ٢٨، وقوله تعالى ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ [المائدة ٦٤]، وقوله تعالى ﴿من أوسط ما تطعمون﴾ [المائدة ٨٩]، وقوله تعالى ﴿يكادون يسطون﴾ [الحج ٧٢] في حين قرأهن الباقون بالسين(١)، وهذا هو ما أذهب إليه وأعتقده في أمثال هذا التعديل بين أصوات الحروف داخل الكلمات في أثناء النطق، وليس إبدالا أو تماثلا كما سماه القدماء وبعض المحدثين– وهو ما سوف نراه– والتنافر بين صفات حرفي (السين والخاء في كلمة سلخ) هو ذاته الذي دفع بعض الناطقين من أبناء العربية القدماء إلى إشمام حرف السين شيئا من صفات أخيه

---

(١) التذكرة في القراءات الثمان ج٢، لأبي الحسن بن غلبون، ط١، ص: ٣١٥،

الصاد؛ وذلك لأن من صفات حرف السين – كما هو واضح في الجداول المرفقة – أنه مستفل منفتح، وهما صفتا ضعف، بينما يوصف حرف الخاء بأنه مستعل مطبق، وهما صفتا قوة، وهذا هو أصل التنافر بين هذين الحرفين في هذه الصيغة وأمثالها، ولذلك استعار حرف السين بعض صفات أخيه الصاد المشتركة بينه وبين حرف الخاء، فنطقوا به قريبا من نطق حرف الصاد بسبب مجاورته لحرف الخاء (صلخ)، ولم يبدلوه صراحة حرف صاد، كما عبر عنه بعض القدماء ومن نحا نحوهم من الباحثين المحدثين، ومنه قراءة من قرأ قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ – (الرعد: الآية ٢) بالصاد دون السين[1]، وذلك تبعا للقاعدة (الفنولوجية) التالية:

/ س /

/ س/ ———← [ص]/ * ——— /خ /، على سبيل المضارعة الرجعية الجزئية وقد سبق ذكر ذلك .

ولو تأملنا الكلمتين التاليتين من هذه المجموعة؛ وهما (فصد ، وأصدر) لوجدنا تجاور حرف الصاد الساكنة مع الدال، وهما حرفان – كما هو واضح في الجداول المرفقة – مختلفان في صفات الجهر والاستعلاء والإطباق والهمس والانفتاح والاستفال؛ إذ الصاد حرف مهموس مستعل مطبق، بينما الدال حرف مجهور مستفل منفتح، وهذه صفات متنافرة، وتجعل من الصعب على كثير من أبناء القبائل العربية البدوية القديمة الذين كانوا يقطنون الصحراء؛ النطق بهذين الحرفين متجاورين ليس بينهما فاصل، فعمدوا – في نطقهم إلى إشمام حرف الصاد الساكنة بعض صفات أخيه الزاي، وهي صفة الجهر، حتى

---

[1] (١) الدمياطي، أحمد بن محمد، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، مصر، ص: ٢٢٧،

تقل مسافة التنافر بينهما، فنطقوا بالصاد الساكنة في أمثال هذه الكلمات قريبا من حرف الزاي (مخرجه بين مخرج الصاد ومخرج الزاي) فقالوا: فزْد بدلا من فصْد، وأَزْدَر بدلا من أَصْدَر، وقزْد في قصْد، ولم يبدلوها زايا محافظة على الإطباق؛ لئلا يذهب لفظ الصاد بالكلية فيذهب ما فيها من الإطباق، والإطباق فضيلة في الصاد فيكون إجحافا بها، بل إن بعضهم قد جعله مطردا في كلامه سواء سكنت الصاد أم لم تسكن، بشرط مجيء القاف بعدها؛ فقالوا: شاة زقعاء في صقعاء، وزدق في صدق، ومن الوجهين ما أنشدوه:

ودَعْ ذَا الهَوَى قَبْلَ القِلَى تركَ ذِي الهوى   مَتِين القِوَى خَيْرٌ من الصرْم مَزْدرا

يريد: مصدرا.

وقال الآخر:

يَزِيدُ – زَادَ اللهُ فِي خَيْرَاتِه   حامي نِزَار عند مَزْدوقَاتِه

يريد: مصدوقاته [1].

ومنه قولهم في المثل: (لم يُحْرَمْ مَنْ فُزْدَ لَه) والمراد فُصِدَ له. وقول حاتم الطائي: (هَكَذَا فَزْدِي أَنَهْ)[2]

ويؤيد ذلك قراءة حمزة والكسائي ورويس قوله تعالى ﴿ومن أصدق من الله﴾ [النساء ٨٧] بإشمام الصاد الزاي، وكذا ما أشبهه مما سكنت فيه الصاد وأتت بعدها الدال [3]، وهي لغة لعذرة وبني القين وطيِّء [4]، وإنما فعلوا ذلك مضارعة لحرف الصاد لأخيه حرف الزاي؛ بسبب الجهر في كل من حرفي الدال

---

[1] سر صناعة الإعراب ج١، ط١، ٢٠٨،

[2] الزمخشري، أبو القاسم محمود، المفصل في علم العربية، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت عام ١٤١٠هـ، ص: ٤٤٣،

[3] سر صناعة الإعراب ج١، ط١، ص: ٣٠٨،

[4] البحر المحيط.ط٢، ١/ ٢٥.

والقاف،ولم يبدلوها زايا خالصة؛ كراهية الإجحاف بها للإطباق [1]،وهذه مضارعة رجعية جزئية؛ وذلك وفق القاعدة (الفنولوجية) التالية:

/ ص /

/ص/ ←[ز] ـــ* / د /، على سبيل المضارعة الرجعية الجزئية.

/ص/ ←[ز] ـــ* / ق /، على سبيل المضارعة الرجعية الجزئية .

وهي تعني أن:

/ ص /	+ مهموسة + مطبقة + مستعلية + صفيرية	←[ز]	+ مجهورة + منفتحة + مستفلة + صفيرية	*ـــ/د، ق/

على سبيل المضارعة الرجعية الجزئية

وهذا التعديل في السلسلة الكلامية بين صفات هذه الحروف في تلك الكلمات التي نُوقِشَتْ تم؛ وذلك بتعديل حرف سابق؛ ليحاكي ويضارع حرفا لاحقا في الصفات، وقد يكون في المخرج أو في كليهما – كما رأينا فيما سبق – وهذه الصورة من المضارعة أو المحاكاة – كما عبر عنها بعض القدماء من اللغويين والنحاة – تعرف في البحث الصوتي الحديث – بالمضارعة الرجعية (back word)، وتعني: أن يؤثر الحرف التالي أو اللاحق في اللفظ على الحرف السابق له، فاتجاه التأثير يحدث على هذه الصورة(←ـــ*)، أو عكس اتجاه النطق من اللاحق إلى السابق، أو من اليسار إلى اليمين، هكذا (٤، ٣، ٢، ١) . أو وفق القاعدة (الفنولوجية) التالية:

صوت حرف ← صوت حرف آخر/ ← *

---

(١) ابن يعيش، شرح المفصل ج١٠، عالم الكتب بيروت، ص: ٥٣،

وتعني: صوت حرف مهموس أو مستفل (مثلا) وقع مباشرة أو بعد فاصل قبل صوت حرف مجهور أو مستعل (مثلا)، فنُطِقَ به (الحرف المهموس أو المستفل) قريبا (بين بين)، أو شبيها من صوت الحرف المجهور أو المستعلي (غلبت عليه صفات الحرف المجهور أو المستعلي) . ويكون التأثير من صوت الحرف اللاحق على صوت الحرف السابق.

وفي المجموعة (ب) نلاحظ أن الدرجة الصوتية الأولى لتلك الألفاظ اشتملت على حروف بين بعضها مع بعض تنافر في المخرج أو الصفة أو كليهما، فعمد بعض الناطقين بها؛ ممن لم تطاوعهم ألسنتهم النطق بهذه الحروف المتنافرة؛ لظروف (فسيولوجية) – تبعا لوظائف الأعضاء – أو بيئية، إلى تعديل أصوات تلك الحروف في الدرجة الصوتية الثانية إلى حروف أخرى بينها شيء من المضارعة أو المحاكاة؛ حتى يستقيم لهم النطق، ولتكون حركات اللسان بينها شيء من التناسب والتناسق، وليس التنافر والاختلاف .

ومن هنا نجد أن حرف التاء في هذه الكلمات قد تم تعديله في النسق الكلامي داخل بنية هذه الكلمات؛ حتى يضارع حروفا أخرى حدث بينها وبينه تنافر في المخرج أو الصفة أو كليهما، ولننظر الآن إلى كلمة (ازتجر ← ازدجر) وهذا يسير وفق قانون البحث عن السهولة في النطق، والاقتصاد في المجهود العضلي، والفرار إلى أخف الحروف على اللسان عند النطق بالحروف، ومعلوم أن اكتناف كل من حرفي الزاي والجيم لحرف التاء في الصيغة المذكورة يؤدي إلى صعوبة في النطق؛ بسبب الاختلاف في الصفات؛ التي لهما عن تلك الصفات التي يتصف بها حرف التاء؛ إذ يعد حرف التاء حرفا مهموسا؛ وهو بذلك يخالفهما بكونهما من الحروف المجهورة، وصفتا الجهر والهمس – كما ذكرتُ ذلك سابقا – من الصفات المتضادة، وتعد صفة الجهر قوية؛ في حين توصف صفة الهمس بالضعف، ولا يجتمعان معا إلا حيث يجتمع الليل والنهار في

مكان واحد، وذلك مستحيل، فعمد حرف التاء إلى إشمام نفسه شيئا من صفة الجهر؛ لئلا يلحقه بعض التغيير من أخويه المجهورين؛ اللذين يحيطان به في الصيغة، وليس من مخرجه إلا حرفان؛ هما الدال والطاء، فأشم نفسه شيئا من صفة الجهر؛ التي لأخيه حرف الدال دون الطاء؛ وذلك للتقارب في الصفات بين كل منهما (الدال والتاء) فهما من حروف القلقلة (جد قطب) والشدة (أجد قط بكت) وهذه صفات يشترك معهما فيها حرف الطاء بيد أنهما ينفردان عنه بأنهما من حروف الاستفال بينما يتصف حرف الطاء بأنه حرف مستعل، وهذا في – رأيي – هو الذي جعل الدال أقرب إلى التاء من أخيها حرف الطاء، فقال العربي القديم؛ وهو الذكي في اختيار حروف كلامه (ازدجر)، وبها ورد التنزيل في قوله تعالى ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ [القمر ٤]، وذلك على سبيل المضارعة الجزئية الرجعية، هذا إذا ذكرنا أن الحرف الذي أثر في التاء هو حرف الجيم، ولنا أن نعدها مضارعة جزئية تقدمية – أيضا – بناء على أن الحرف الذي أثر في التاء هو حرف الزاي دون سواه، وذلك وفق القاعدة (الفنولوجية) التالية:

/ت/

/ت/ ←—— [د]/ ——*/ج/ على سبيل المضارعة الجزئية الرجعية .

وهي تعني أن:

/ ت /	+ مهموسة	←[د]	+ مجهورة	—*/ج/
	+ شديدة		+ شديدة	
	+ منفتحة		+ منفتحة	
	+ مستفلة		+ مستفلة	

على سبيل المضارعة الجزئية الرجعية

أما على المحمل الثاني، فإن القاعدة (الفنولوجية) هي:

/ت/——←[د]/*——← / ز / على سبيل المضارعة الجزئية التقدمية .

وهي تعني أن:

/ ت /	+ مهموسة	[د] ←	+ مجهورة	—*/ ز /
	+ شديدة		+ شديدة	
	+ منفتحة		+ منفتحة	
	+ مستفلة		+ مستفلة	

على سبيل المضارعة الجزئية التقدّمية

فإذا تأملنا كلمة (وَتَد) في لغة الحجاز القديمة ← (ودّ) في لغة تميم ومن نحا نحوهم من القبائل العربية البدوية القديمة، بدا لنا جليا أننا لن نقف على حقيقة ما حدث – ههنا – دون أن نقدم بين يدي القارئ بعض السمات الصوتية؛ التي اتصفت بها كل من اللغتين قبل مجيء الإسلام، فقد مالت لغة الحجاز القديمة إلى التأني في القول، والنعومة في اختيار الألفاظ، وكان الميل إلى توالي الحركات داخل الصيغة سمة من سمات القول في كلامهم؛ فقد نسب إليهم أنهم كانوا يقولون (كَبِد، وعُنُق، وعَضُد، ورَقَبَة، وجَفَنَة، وظَبَيَة، وينسب إلى حسان بن ثابت؛ وهو حجازي؛ قوله:

لنا الجَفَنَات الغُرُّ يَلْمَعْنَ في الضُّحَى وأَسْيَافُنا مِنْ نَجْدَةٍ يَقْطُرْنَ بالدَّما

كما ينسب إلى مجنون ليلى وهو حجازي قوله:

باللهِ ياظَبَيَاتِ القَاعِ قُلْنَ لنا: لَيْلايَ منكنَّ أمْ ليلى مِنْ البَشَرِ

ونسب إلى هذيل قول شاعرهم:

أَخُو بَيَضَاتٍ رَائِحٌ مُتَأَوِّبُ رَفِيقٌ بِمَسْحِ الْمَنْكِبَيْنِ سَبُوحُ

وقرئ شاذا ﴿ثلاث عَوَرَاتٍ﴾ [النور: ٨٥](١)

---

(١) الإستراباذي، رضي الدين، شرح شافية ابن الحاجب ١٠٩/٢، وما بعدها، ت: محمد نور وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت.

وبناء على ذلك لم يجد الحجازيون القدماء صعوبة في نطق التاء مجاورا للدال؛ فقد خففت الحركة جزءا كبيرا من هذا التجاور، فإذا أضفنا إليه ميلهم في كلامهم إلى التأني، والرقة في اختيار الألفاظ، أمكننا القول بأن (وَتَدْ) تمثل بعض سمات لغة أهل الحجاز القديمة، في حين مالت لغة أهل نجد القديمة إلى إيثار التسكين في ذلك كله ميلا إلى الخفة(١)، وفرارا إلى الاقتصاد في المجهود العضلي، ولهذا قالوا: وتْدْ كما قالوا كَبْد، وعَضْدْ، وعُنْقْ، وعَضْدْ، وجَفْنة، وظَبْيَة،(٢) فاجتمع كل من حرف التاء والدال في هذه الصيغة متجاورين، وليس بينهما فاصل من حركة أو سواها، وكان كل منهما ساكنا، أما الأول فجريا على قاعدهم في التخلص من توالي الحركات بحذف حركة الوسط، وأما الثاني فللوقف، وكان كل من هذين الحرفين متقاربين مخرجا؛ ولكنهما متنافران في بعض الصفات؛ فالتاء حرف مهموس بينما يعد الدال حرفا مجهورا، وكما رأينا– سابقا– في الجداول المرفقة؛ فإن ذلك من الصفات المتضادة،ولا تجتمعان معا، إلا حيث يجتمع الضدان؛ وذلك مستحيل،ففرت لغة تميم ومن نحا نحوهم من القبائل البدوية العربية القديمة إلى إشمام حرف التاء شيئا من صفة الجهر؛ التي لأخيها حرف الدال؛ فنطق به– في أول الأمر– قريبا من حرف الدال، ثم غلبت صفة الجهر التي للدال على صفة الهمس التي للتاء؛ فصار كأنه هو، فنطق به شبيها به؛ فاجتمع لذلك حرفان أحدهما أصيل في الصيغة ويمتلك صفة قوة وهي الجهر، والآخر مشم

---

(١) وبلغتهم قرأ السوسي عن أبي عمرو في اثني عشر موضعا في القرآن: وهي على النحو التالي: ﴿ينصرْكم﴾ في آية ١٦٠في آل عمرآن، وتبارك آية ٢٠، و﴿يأمرْكم﴾ و﴿يأمرْهم﴾ في تسعة مواضع: أربعة في البقرة آيات ٦٧، ٩٣,١٦٩، ٢٦٨، وموضعان في آل عمران آية ٨٠، وموضع في النساء آية ٥٨، وموضع في الأعراف ١٥٧، وموضع في الطور آية ٣٢، و﴿يشعرْكم﴾ في الأنعام ١٠٩، انظر التذكرة في القراءات الثمان ج٢، ص: ٢٥٢.

(٢) المخصص لابن سيده ج١٤، ص: ٢١٧وما بعدها،

به بعض صفات أخيه ويمتلك صفة ضعف وهي الهمس؛ فأدغم الحرفان بعضهما في بعض تجاوزا، ونطق بهما حرفا واحدا مشددا على سبيل المضارعة الرجعية التامة، ولم يكن ما حدث إبدالا أو قلبا؛ كما ذهب إليه بعض القدماء من علماء اللغة العربية والنحو، وذلك وفق القاعدة (الفنولوجية) التالية:

/ت/

/ت/ ——← [د]/ ——— */ د / على سبيل المضارعة الرجعية التامة .

وهي تعني أن:

$$/\text{ت}/ \begin{bmatrix} \text{+ مهموسة} \\ \text{+ شديدة} \\ \text{+ منفتحة} \\ \text{+ مستفلة} \end{bmatrix} \longrightarrow [\text{د}] \begin{bmatrix} \text{+ مجهورة} \\ \text{+ شديدة} \\ \text{+ منفتحة} \\ \text{+ مستفلة} \end{bmatrix} / \, {}^{*}\_\_ \, /\text{د}/$$

على سبيل المضارعة الجزئية التامة

أما إذا تأملنا الكلمات (فحصت، اصتبر، اصتلح)، وهي تدخل ضمن الكلمات؛ التي تشملها القاعدة الصوتية؛ التي أشار إليها بعض القدماء من اللغويين والنحاة العرب؛ حيث يرون أن هناك قوما من العرب القدماء يضارعون بتاء ضمير الفاعل من كل كلمة لامها صاد أو ضاد أو طاء أو ظاء صوت حرف الطاء؛ وذلك تشبيها منهم لتاء ضمير الفاعل بعدهن بهن في (افتعل) لشدة اتصال تاء الضمير بالفعل؛ كاتصال تاء الافتعال بما قبلها؛ لأنه يبنى الفعل على التاء، ويغير الفعل فتسكن اللام لما سكن الفاء في افتعل ولم تترك الفعل على حاله في الإظهار فضارعت عندهم افتعل⁽¹⁾. وبناء عليه نرى أن حرف التاء قد جاور

---

(١) الكتاب ج٢، ط١، ٤٢٢، وانظر كذلك شرح الشافية لمؤلفه رضي الدين الإسترابادي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ٣/٢٠٢،

حرف الصاد؛مع اختلاف في وظيفته التركيبية في الكلمتين؛ فحرف التاء في الكلمة الأولى هو ضمير بارز للمتكلم فاعل، بينما هو – في الكلمة الثانية – حرف زائد من صيغة (افتعل)، بيد أن وضعه – صوتيا – داخل بنية هاتين الكلمتين غير متجانس أو متآلف مع حرف الصاد، ليس في المخرج فحسب؛ لا بل في الصفة أيضا، كما أوضحتُ سابقا، فحرف التاء – من حيث الصفات – منفتح ومستفل، وهو يخالف بذلك بعض صفات حرف الصاد المتصف بالصفير والاستعلاء والتفخيم والإطباق، ومع أن حرف التاء يتصف بأنه شديد وقفي غير انفجاري، فقد تغلبت صفات حرف الصاد القوية الأربع على تينك الصفتين – أعني بهما الشدة والوقفية – اللتين لحرف التاء، فلم يجد حرف التاء في مقاومته تأثير حرف الصاد ذي الصفات الأقوى منه عليه، والمجاور له في بيئته اللغوية مفرا من التشبه والمحاكاة بعض صفات أخواته ذوي الصفات القوية حتى يبقى معه في بيئته اللغوية دون إفناء أو إقصاء، ولم يكن أمامه إلا أن يفزع إلى إخوته؛ طالبا المدد والعون منهم، وليس من مخرجه إلا حرفا الدال والطاء، وفي الطاء صفات قوة أكثر مما في حرف الدال؛ إذ هو حرف مجهور مستعل مفخم مطبق شديد وقفي من حروف القلقلة، في حين يعد التاء حرفا مهموسا مستفلا منفتحا، وهي صفات ضعف، ولذلك أَشَمَّ نفسه بعض الصفات القوية التي لأخيه حرف الطاء ، وهي(الاستعلاء والتفخيم والإطباق)، لتتواءم وتتآلف مع صفات حرف الصاد، وكان ذلك كذلك لأنهما من حروف الإطباق الأربعة(ص، ض، ط، ظ)، وحروف الاستعلاء والتفخيم (خص ضغط قظ)، وليس حرف الدال كذلك – كما أوضحنا سابقا–، وذلك وفق القاعدة (الفنولوجية) التالية:

/ت/

/ت/ ←[ط]/ ـــــ*/ ص /، على سبيل المضارعة التقدمية الجزئية.

وهي تعني أن:

/ ت /	+ شديدة		+ شديدة	/ —/ص/
	+ مهموسة	← [ط]	+ مجهورة	
	+ منفتحة		+ منفتحة	
	+ مستفلة		+ مستفلة	

على سبيل المضارعة التقدمية الجزئية

وهذا ما نرجحه ونميل إليه في تفسير هذه الظاهرة الصوتية، ولم يكن ذلك التصرف من حرف التاء إبدالا له أو قلبا، كما زعمه بعض القدماء ومن سايرهم من الباحثين الصوتيين المحدثين .

ومن العرب من غلب صفات القوة التي للصاد وهي الصفير والاستعلاء والتفخيم والإطباق على صفات حرف التاء المشم به صفات حرف الطاء وهي الاستعلاء والتفخيم والإطباق؛ لأسباب كثيرة؛ لعل منها:

أولا: أن الصاد حرف أصيل في الصيغة، ولم يكن حاله حال التاء الذي هو حرف دخيل أتي به لغرض؛ وهو صيغة الافتعال .

ثانيا:أن حرف الطاء الذي في صيغة (اصطلح) ليس حقيقة هو حرف الطاء مخرجا وصفات، ولو كان الأمر كذلك لكان حرف الطاء أقوى في صفاته من حرف الصاد، ولكنه– في الحقيقة – هو حرف (التاء) المشم به بعض صفات حرف الطاء؛ ليوائم ويشاكل حرف الطاء في صفات الاستعلاء والتفخيم والإطباق، والناطق العربي كان يدرك ذلك؛ لأنه ذكي في التصرف بحروف لغته؛ ولذلك غلب عليه صفات حرف الصاد؛ لفضيلة الاستعلاء والتفخيم والإطباق التي في حرف الصاد، ولئلا يضيع لمح الأصل لو غلب صفات حرف الطاء عليه؛ ولهذا قالوا: اصَّلح بدلا من اطَّلح . وكان ذلك وفق القاعدة (الفنولوجية) التالية:

/ت/

/ت/ ← [ط]/ ـــ*/ ص/ على سبيل المضارعة التقدمية الجزئية.

وقد سبق إيضاح ذلك.

[ط] ←[ص]/ ـــ* /ص/، على سبيل المضارعة التقدمية الجزئية.

وهي تعني أن:

/ ط /	+ مجهورة + شديدة + مستعلية + مطبقة	←[ط]	+ مهموسة + رخوة + مستعلية + مطبقة	—*/ص/

على سبيل المضارعة التقدمية التامة

فإذا تأملنا كلمتي (خبطْتُ ← خبطٌّ، وتطهَّر ← يطَّهر) مثلا، وهما يجريان وفق القاعدة الصوتية السابقة؛ التي أشار إليها بعض القدماء، وجدنا أنهما اشتملتا على حرفين من مخرج واحد؛ وهما حرفا التاء والطاء،ولكنهما متنافران في بعض الصفات؛ فمع (خبطت ←خبطٌّ) نلاحظ أنهما حرفان شديدان وقفيان، إلا أنهما حرفان يختلفان – صفة – إذ يتصف حرف التاء بأنه مهموس مستفل منفتح، وهي صفات ضعف، بينما يتصف حرف الطاء بأنه مجهور مستعل مفخم مطبق من حروف القلقلة، وهي صفات قوة، ولأجل ذلك لم يقو حرف التاء أن يبقى محتفظا بصفاته الضعيفة بجانب حرف الطاء ذي الصفات القوية، فأَشَمَّ حرفُ التاء نفسَه بعض صفات القوة التي لحرف الطاء؛ كالاستعلاء والتفخيم والإطباق؛ ليتقوى بها ، فاجتمع حرفان قُرِّب أحدهما من الآخر في الصفات، أحدهما: يمتلك بطبيعته هذه الصفات، أما الآخر: فقد تلبس بها، وحاكاها ليقاوم تسلطه عليه؛ فصعب على اللسان أن ينطق بحرفين متشابهين

على هذه الكيفية ليس بينهما فاصل في وقت واحد، فأدغمهما بعضهما في بعض تجاوزا؛ ليسهل عليه النطق بهما؛ فنطق بهما ←—— (خبطٌ) على سبيل المضارعة التقدمية التامة، ومن ذلك قولهم: فحصط في: فحصت، وحصط عن الحق في: حصت، وأحطٌ في: أحطتُ، وحفظطٌ في: حفظتُ، قال سيبويه وسمعناهم ينشدون هذا البيت – وهو لعلقمة ابن عَبْدَة:

وفي كلُّ حَيٍّ قدْ خَبَطَّ بِنعمَةٍ   فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ندرب

ولم يك هذا التصرف منهم إبدالا أو إدغاما كاملا، وفق شروطه،وقد ذكر سيبويه أنه سمع هذه اللغة ممن تُرضى عربيته، ولكنه لم ينسبها إلى أحد من قبائل العرب، ووصف بعض النحاة هذه اللغة بأنها ليست بالكثيرة، وعزوها إلى بعض بني تميم، وإن كانوا قد وصفوها بالقلة والشذوذ أحيانا(١).

نستطيع أن نستنتج من هذه الأمثلة التي أوردناها، ومن أمثلة أخرى كثيرة حفلت بها ألفاظ اللغة العربية أن هناك مضارعة ومحاكاة وتقريبا بين بعض حروف هذه الكلمات التي ناقشناها قد حدث . وقد كان اتجاه التأثير في كثير منها حاصلا من الأمام إلى الخلف مع تيار النفس الصاعد هكذا (*←———) أي: من اليمين إلى اليسار (forward) أو هكذا: ١ ←———

٢ ←——— ٣ ←——— ٤ .

وهذا التأثير بين أصوات حروف الكلمات على هذا النحو يعرف بالمضارعة الصوتية التقدمية؛ حيث يؤثر فيها صوت حرف سابق في صوت حرف لاحق، ويمكن أن نرمز لهذه الصورة من المضارعة بين أصوات الحروف اللغوية في بعض هذه الصيغ التي نوقشت على هذا النحو:

(صوت حرف ←——صوت حرف آخر(بين بين)/*←——) صوت حرف ما.

---

(١) شرح الشافية لرضي الدين ٣/٢٠٢،

يعني: صوت حرف مجهور (مثلا) وقع مباشرة أو بعد فاصل قبل صوت حرف مهموس أو مستفل (مثلا)، ينطق به (صوت الحرف المهموس أو المستفل) قريبا من صوت الحرف المجهور أو المستعلي (بين بين)، أو شبيها بهما (صوت حرف غلبت عليه صفات الحرف المجهور أو المستعلي) إذا وقع صوت الحرف المهموس أو المستفل بعد صوت الحرف المجهور أو المستعلي.

والقول نفسه يمكن أن يقال في اللفظ (تطهر ←—— يطَّهر) كما في قوله تعالى ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين﴾ [التوبة ١٠٨].

ونحن لو تأملنا ما حدث في ضوء ما نحن بصدده لرأينا أن أصل تركيبها هو (متطهرين) على وزن (متفعلين) من الفعل (تطهَّر)؛ فاجتمع – في هذه الصيغة – حرفان متنافران في الصفات؛ وهما حرفا التاء والطاء؛ إذ التاء حرف مهموس مستفل منفتح؛ في حين أن الطاء حرف مجهور مستعل مطبق من حروف القلقلة؛ فلم يقو حرف التاء مع هذه الصفات الضعيفة أن يجاور حرف الطاء ذي الصفات القوية، وهما مع ذلك متقاربان مخرجا، وكان أمام حرف التاء أحد طريقين؛ فإما أن يبقى جامدا في مكانه دون اكتراث، ولا يستنجد بأخواته؛ لتقف معه في مقاومة تأثير حرف الطاء عليه؛ مما يجعل لحرف الطاء مبررات ليسيطر عليه بسببها، ويخضعه لتأثيره، ويجعله جزءا منه ، وإما يفزع طالبا المدد والعون من أخواته ليبقى في مكانه دون فنائه فيه، وبما أن العربي ذكي في التصرف بحروف لغته وجد أمامه حرفين يشتركان مع حرف التاء مخرجا وصفة؛ وهما (حرفا الدال والطاء)، ومع أنه كان بإمكانه أن يختار ما شاء منهما بذكائه وحسن تصرفه في لغته عمد إلى أن يشم حرف التاء بعضا من صفات حرف الطاء دون حرف الدال؛ لاشتراك كل من حرفي التاء المشمة بعض صفات حرف الطاء مع حرف الطاء الموجودة في أصل الصيغة (طهر) في صفات الاستعلاء والتفخيم والإطباق، وهذه الصفات غير موجودة في حرف الدال، ولهذا اختار العربي في نطقه إشمام التاء صفات حرف

الطاء دون صفات حرف الدال، فوُجِد في الصيغة حرفان أحدهما حرف التاء المشم به صفات حرف الطاء (أو بين بين)، والآخر حرف الطاء الأصيل، فطغت صفات حرف الطاء الأصلية القوية على صفات حرف الطاء المشمة لهذين السببين اللذين ذكرناهما، وصارت أكثر شبها بصفاته؛ فضورع بحرف الطاء المشمة (وأصلها التاء) في صفاته الضعيفة (وهي الاستفال والانفتاح والهمس) حرف الطاء في صفاته القوية (وهي الاستعلاء والإطباق والجهر) فصارت كأنها هي هي، واجتمع الحرفان؛ أولهما التاء المضارع بصفاته، والآخر حرف الطاء ذو الصفات القوية؛ ثم أدغم الحرفان بعضهما قي بعض تجاوزا، فصارا حرفا واحدا مشددا على سبيل المضارعة الرجعية التامة الكلية، فنطقوا بهما (مطَّهرين) بطاء واحدة مشددة، بيد أنه بقي في اللفظة ما يستدل منه على أصل التركيب، ولم يكن من نوع الإدغام بين الحرفين المتماثلين في كل شيء (مخرجا وصفة)، ومثله قراءة الكوفيين – سوى حفص – قوله تعالى: ﴿وسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ [البقرة ٢٢٢] بفتح الطاء والهاء مع تشديدهما(١)، على ما سنوضحه فيما بعد . ذلك على النحو التالي:

/ ت /

/ت/ ——◄ [ط] / ـــــ */ ط /، على سبيل المضارعة الرجعية التامة.

فإذا تأملنا ما حدث في صيغة (اظتلم ——◄ اظطلم)، وهي (افتعل) من الفعل الماضي (ظلم)، فقد اجتمع حرف التاء مع حرف الظاء في هذه الصيغة، وهما حرفان متنافران من حيث الصفات؛ فالظاء حرف مجهور مستعل مفخم مطبق في حين أن التاء حرف مهموس مستفل منفتح، وهذه صفات متضادة – كما أوضحنا سابقا–، وما دام أنه من العسير جدا الجمع بين الصفات المتضادة؛

---

(١) التذكرة ج٢، ط١، ص: ٢٦٩،

فقد صار لزاما أن تتغلب صفات حرف الظاء على صفات حرف التاء لقوتها من ناحية، ولأن الظاء حرف أصيل في بنية الكلمة، في حين أن التاء حرف دخيل أُتِيَ به لغرض طلب المفاعلة من ناحية أخرى، ولهذا فزع حرف التاء إلى أخواته التي يشترك معها في المخرج والصفات يطلب منها المدد والمساعدة ليتقوى بها على قوة نفوذ وتأثير حرف الظاء عليه، وليبقى في مكانه دون إفناء أو إزالة، فوجَد حرفي الطاء والدال من مخرجه، ففضَّل الاستعانة بصفات حرف الطاء لقوتها من ناحية كونها تشتمل على صفات الاستعلاء والتفخيم والإطباق والجهر، وكذا للعلاقة التي تجمع بين صفاته وصفات حرف الطاء؛ إذ كلاهما مجهوران من حروف الاستعلاء والتفخيم والإطباق، ولهذا ناسب حرف التاء أن يشم نفسه بعض صفات حرف أخيه الطاء ليتقوى بها في مواجهة طغيان صفات حرف الظاء عليه؛ لاشتراكهما في بعض الصفات الأساسية التي تجمع بينهما، فقالوا أولا (اظطلم) بدلا من (اظتلم)، وذلك وفق القاعدة (الفنولوجية) التالية:

/ ت /

/ت/ ←[ط]/ *ـــ /ظ/، على سبيل المضارعة التقدمية الجزئية.

وهي تعني أن:

	+ مهموسة		+ مجهورة	
/ ت /	+ شديدة	←[ط]	+ شديدة	*ـــ/ط/
	+ مستفلة		+ مستعلية	
	+ منفتحة		+ مطبقة	

على سبيل المضارعة التقدّمية الجزئية

ومن الناطقين العرب من وجد صعوبة في نطق حرف الظاء مجاورا حرف الطاء دون فاصل في اللفظ، وقد تصرف فيه على طريقين، فوجدناهم مرة نطقوا

به على (اظَّلم) بتشديد الظاء، وذلك لما أرادوا تجانس الصوت ومضارعته للحرف الأول وهو حرف الظاء فعمدوا إلى تغليب حرف الظاء في صيغة (اظطلم) على أخيه حرف الطاء لأنه هو الأصل في صيغة اللفظ (ظلم)، وهو لهذا أبلغ في الموافقة والمشاكلة، ومن العرب من إذا بنى مما فاؤه ظاء (افتعل) ضارع حرف الظاء أخاه حرف الطاء لما بينهما من المقاربة والاشتراك في كثير من الصفات فجعله طاء، ولعله توهم بأن الطاء أصل من بنية اللفظ ولم يؤت به لغرض الافتعال؛ فمال عند نطقه إلى تغليب صفات حرف الطاء – وهو المشم عند جمهور الناطقين العرب – على صفات أخيه حرف الظاء، ولا ريب أن حرف الطاء – حينئذ – أقوى صفاتٍ من أخيه حرف الظاء لما ذكرناه سابقا؛ وهذا في رأينا خلاف الأصل لسببين ظاهرين:

الأول: أنه ليس أصلا من حروف الكلمة، وإنما أتي به توصلا للنطق بحرف الظاء، فلو غُلِّبَ على الحرف الأصلي في بناء الكلمة (وهو الظاء فقيل اطَّلم)، لعُدَّ ذلك تجاوزا من الناطق العربي، وهو الذي عودنا دائما أنه ذكي في التصرف بحروف لغته، كما أن فيه ضياع لمح الأصل.

والثاني: تغليب صفات الحرف الدخيل على صفات أخيه الأصيل؛ إذا كان يتمتع بصفات أقوى منه، ومع هذه المحاذير وقع شيء منه، وشواهده من ألفاظ لغتنا العربية كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة﴾ [يوسف ٤٥] وقوله تعالى ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدّكر﴾ وقوله تعالى ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ [القمر ١٥، ١٧، ٢٢، ٣٢] وأصله من الذِّكر، وورد عن بعض العرب قولهم في (اظْطَلَمَ ⟵ اظَّلم، واطَّلمَ ، وقد روي بيت زهير بن أبي سلمى:

هو الجَوادُ الذي يُعطِيكَ نائِلَهُ عَفْوًا ويُظْلَمُ أحيانا فَيَظَّلِمُ

على ثلاثة أوجه (فيظطلم على الأصل، ويظَّلم بظاء مشددة على الوجه

الثاني، وهو شاذ في القياس كثير في الاستعمال عند اللغويين والنحاة القدماء، ويروى فيطَّلم بالطاء على الوجه الثالث، وهناك من رواه على فينظّلم بنو المطاوعة على حد كسرته فانكسر. وقالوا أيضا: في اذدكر ←—— اذّكر، و في مذدكر ←—— مدَّكر)، وذلك كله على سبيل المضارعة الرجعية التامة، هكذا:

[ط] ←—— [ظ]/ ——* / ظ /، على سبيل المضارعة التامة .

وتعني :

/ ط /	+ مهموسة	←[ظ]	+ مجهورة	ــ*/ظ/
	+ شديدة		+ رخوة	
	+ مستعلية		+ مستعلية	
	+ مطبقة		+ مطبقة	

/ظ/ ←—— [ط]/*—— /ط/، على سبيل المضارعة الرجعية التامة.

/ ظ /	+ مجهورة	←[ط]	+ مجهورة	ــ*/ط/
	+ رخوة		+ شديدة	
	+ مستعلية		+ مستعلية	
	+ مطبقة		+ مطبقة	

/ ذ /

/ ذ /←—— [د]/ *——[د]/، على سبيل المضارعة الرجعية التامة.

/ ذ /	+ مجهورة	←[د]	+ مجهورة	ــ*/د/
	+ رخوة		+ شديدة	
	+ مستفلة		+ مستفلة	
	+ منفتحة		+ منفتحة	

على سبيل المضارعة الرجعية التامة

ثانيا: المضارعة الصوتية بين الحركات:

وتعد ظاهرة المضارعة أو التقريب بين الحركات (الصوائت) من أكثر الظواهر الصوتية شيوعا واطرادا بين أصوات الحروف في اللغة العربية، ويمكن عدّ التناسب أو التقارب الصوتي (vowel harmony) سببا بارزا ومهما في حدوث التلاؤم بين أصوات حروف العلة داخل البنية .

ونظرة فاحصة إلى ظاهرة الإمالة(١) – في اللغة العربية – توقفنا على الغرض منها؛ وهي

تقريب الأصوات بعضها من بعض؛ لضرب من التشاكل؛ وذلك إذا ولي الألف كسرة قبلها أو بعدها؛ نحو: عماد وعالم؛ فيميلون الفتحة قبل الألف إلى الكسرة، ويميلون الألف نحو الياء، فكما أن الفتحة ليست محضة؛ فكذلك الألف التي بعدها؛ لأن الألف تابعة للحركة؛ فكأنها تصير حرفا ثالثا بين الألف والياء(٢)،

---

(١) الإمالة: هي أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء (كثيرا) وهو المحض، ويقال له الإضجاع، ويقال له البطح، وربما قيل له الكسر أيضا، (وقليلا) وهو بين اللفظين، ويقال له أيضا التقليل، والتلطف، وبين وبين، فهي بهذا تنقسم أيضا إلى قسمين: إمالة شديدة، وإمالة متوسطة، وكلاهما جائز في القراءة جار في لغة العرب، والإمالة الشديدة يجتنب معها القلب الخالص والإشباع المبالغ فيه، والإمالة المتوسطة بين الفتح المتوسط وبين الإمالة الشديدة، قال الداني: والإمالة والفتح لغتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فالفتح لغة أهل الحجاز، والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس، قال: وعلماؤنا مختلفون في أي هذه الأوجه أوجه وأولى، قال: وأختار الإمالة الوسطى التي هي بين بين؛ لأن الغرض من الإمالة حاصل بها؛ وهو الإعلام بأن أصل الألف الياء أو التنبيه على انقلابها إلى الياء في موضع أو مشاكلتها للكسر المجاور لها أو الياء، النشر ٢/ ٣٠.

(٢) شرح المفصل، ٩/ ٥٥ وما بعدها،

وهذا التناسب والتقريب بين الحركات (الصوائت) يعد أهم أثر تؤديه هذه الظاهرة الصوتية، فقد أدت رغبة بعض أبناء العربية القدماء في سرعة النطق إلى نشأة ضرب من تجانس أصوات الكلمة وتناسبها (١)؛ وذلك لأن اللسان يرتفع بالضم وهو يقتضي تصعدا واستعلاء، وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع، فإذا أملْتَ الألف قُرِّبتْ من الياء، وامتزج بالفتحة طرف من الكسرة؛ فتصير الألف من نمط واحد في التسفل والانحدار(٢). ومن ثم أمال حمزة والكسائي وخلف من القراء في قراءات القرآن الكريم كل ألف منقلبة عن ياء؛ حيث وقعت في كتاب الله سواء كانت في اسم أو فعل(٣). ووافقهم أبو عمرو من جميع ما تقدم على ما كان فيه راء بعدها ألف ممالة بأي وزن كان، بل أكثروا من ذلك؛ فأمال الكسائي كل ما كان قبله هاء التأنيث، وقال: إنها من طباع العرب(٤). وقد ألفت هذه الظاهرة الصوتية عن قبائل شرقيّ الجزيرة ووسطها؛ فهي لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد

وقيس ومن وراءهم، ووجدت في كلام أكثر أهل الأمصار؛ لأنها خفيفة على لسانهم، سهلة في طباعهم(٥). وذهب بعض القدماء من علماء اللغة العربية والنحو إلى أن التناسب مقصود كلام العرب، كما في (الغدايا والعشايا)؛ إذ كان قياس جمع غدوة غُدا بالضم أو غدوات، لكنه جمع هكذا؛ لمجاورته العشايا وهو جمع عشية، وعليه جاء سلاسلا وأغلالا؛ إذ كان حق سلاسلا المنع من

---

(١) من بحث للدكتور: عبد الغفار حامد هلال عن تفسير بعض مشكلات الفصحى – مجلة كلية اللغة العربية – الرياض، ع٦، ص: ، ١٥٠

(٢) سر صناعة الإعراب ط١، ١/٥٨،

(٣) النشر ٢/٣٥،

(٤) نفسه ٢/٤٠،

(٥) مجلة كلية اللغة العربية – الرياض ع٦، ص: ١٥٠

الصرف؛ لكنه صرف لمجاورته أغلالا، فكما لم يعلل تنوين سلاسل برسم المصحف، وإنما العلة صرفية مما تجري عليه العرب في كلامها، كذلك تعليل الإمالة في طحا، وتلا، وسجا بما تجري عليه العرب في سننها .

تأمل معي هذه الألفاظ التي ضربها اللغويون والنحاة العرب القدماء لهذه الظاهرة:

١	٢
حِجَاب	حجاب
عِبَاد	عباد
حِدَاد	حداد
جَاء	جاء
زَاد	زاد
عَابِد	عابد
مشَارِب	مشارب
كَيَّال	كيال

وباستقراء هذه الألفاظ نجد المجموعة الأولى قد اشتملت ألفاظا وردت ضمن سياق أدائي غير ممال، بينما أميلت هذه الألفاظ نفسها في المجموعة الثانية؛ وفق شروط أدائية وقواعد نحوية خاصة، ويمكن تصنيف هاتين المجموعتين من الكلمات إلى أربع طوائف:

أ. ألفاظ كسر فيها ما قبل الألف، ويقرر النحاة – هنا– أن هذه الألفاظ هي أقرب إلى إمالة الألف فيها من عدم إمالتها؛ بسبب قرب الألف للكسرة، وذلك للمناسبة بين الكسرة وإمالة الألف المفصول بينهما بحرف واحد وهو الأوْلى، أو حرفان وهو دون الأوْلى .

ب. ألفاظ أميلت فيها الألف ناحية الياء، على نيّة وجود كسرة مقدرة سبقت الألف والكسرة داع – ولا ريب – إلى وجود الإمالة في اللسان العربي، ولاسيما سكان البادية، وما جاورها من القبائل العربية .

ج. ألفاظ أتت فيها الكسرة قبل الألف، وقد مال النحاة – دائمًا – والقراء – أحيانًا – إلى عدّ الكسرة بعد الألف سببا من أسباب الإمالة .

د. ألفاظ أميلت من أجل الياء مطلقا(١) .

ولعل طرفا من هذه المضارعة أو التقريب بين الحركات (الصوائت)، ما نجده من التبادل بين الحركات فيما أطلق عليه القدماء من النحاة واللغويين العرب بـــ (ظواهر الإبدال والإعلال) نتيجة للتناسب والتجانس بين الحركات داخل الصيغة العربية للفظ .

تأمل هذه الألفاظ بعد اقتران أواخرها بالياء الأصلية أو ياء الإضافة:

١	٢
القَاضِي	غُلَامِي
السَّارِي	كِتَابِي
البَاغِي	ثَوْبِي
الحَامِي	قَلَمِي
النَّامِي	سَيَّارَتِي
البَالِي	بَيْتِي
الكُرْسِي	طَرِيقِي
الخَالِي	نَهْجِي

---

(١) شرح المفصل ٩/ ٥٥.

وباستقراء المجموعتين (١ ، ٢) نلاحظ أن المقطع الأخير لكل لفظة من كل مجموعة يتكون صوتيا من نوع المقطع الصوتي المتوسط المفتوح " ص + ح ح "، وبعبارة أخرى فإنه يتألف في البنية العميقة (deep-structure) من حرف صحيح + حركة + كسرة طويلة = حركة طويلة . وهذه الحركة التي صاحبت الصحيح الساكن الأخير، وقُرِّبَتْ إلى الكسرة،إنما جاءت مناسبة للكسرة الأخيرة؛ التي نتج عنها بعد تأليفها مع الكسرة الطويلة الأخيرة حركة طويلة (ياء مكسور ما قبلها)، ومعنى هذا أن الفرار إلى التناسب بين الحركات (الصوائت) أدى إلى تقريب حركة – حتى إن كانت إعرابية – من حركة أخرى نزوعا إلى المضارعة أو التشاكل بين حركات (صوائت) متتابعة . ويبدو أن هذا هو ما حدا ببعض النحاة والصرفيين العرب القدماء إلى القول: بأن الحرف الأخير من كل كلمة في المجموعتين (up-structure) مشغول بالحركة المناسبة للياء؛ وهي الكسرة؛ سواء أكانت هذه الياء أصلية أم ياء إضافة للمتكلم . ويمكن أن تنضوي تحت القاعدة (الفنولوجية) التالية:

حركة قصيرة (أيّ: حركة إعرابية أو غيرها)⟵تصبح من نوع الحركة التي قبلها / ـــــ * حركة طويلة .

وتعني: الحركة القصيرة (سواء أكانت إعرابية أم غيرها) تصبح من نوع الحركة اللاحقة بها إذا وقعت قبل حركة طويلة .

وكما تحدث هذه المضارعة أو التقريب بين الحركات (الصوائت) مع الكسرة فإنه يكون مع الضمة أيضا، وقد حوت اللغة العربية كثيرا من هذه الألفاظ؛ التي ضارعت فيها حركتا الفتحة والكسرة حركة الضمة؛ فتحولتا إلى ضمة مثلها؛ مما نتج عنه ضمة طويلة، تأمل معي هذه الأمثلة:

١	٢
بَايَع	بُويِع
ضَارَب	ضُورِب
صِيَام	صِوَام
وَارَى	وُوْرِي
سِيَاط	سِوَاط
طُيْبى	طُوبَى
مُيْقِن	مُوقِن
نَهُيَ	نَهُوَ
يَقْوُم	بقُوم
يَقْوُلُ	يَقُولُ
مُيْسِر	مُوسِر
أُأْمِن	أُومِن

وبالتأمل جيدا في أصوات حروف المجموعة الأولى من الكلمات؛ في ضوء ما حدث لأصوات هذه الحروف نفسها في كلمات المجموعة الثانية، نرى أن الكلمات (بايع، ضارب، وارى)، سارت مع مقتضى القاعدة الصرفية؛ التي تستوجب أن الألف – صوتيا – (الألف = فتحة + فتحة) الساكنة المفتوح ما قبلها إذا ضم ما قبلها قلبت واوا طويلة، وتحتسب صوتيا (ضمة + ضمة) على سبيل المضارعة أو التقريب بين الحركات المتتابعة؛ لثقل هذا التتابع؛ ولهذا تخلصت منه بتقريب الحركة الثانية من الحركة الأولى الطويلة؛ فنجم عن هذا الإجراء اللغوي في بعض هذه الأمثلة مضارعة وتقريب بين أصوات الحركات لا بين أحرف العلة، ويمكن أن تنطوي تحت القاعدة (الفنولوجية) التالية:

حركة الفتحة الطويلة ـــــ← حركة ضمة طويلة /*ـــــ حركة الضمة القصيرة .

وتعني حركة الفتحة الطويلة تصبح حركة ضمة طويلة عندما تقع (حركة الفتحة الطويلة) بعد حركة الضمة القصيرة .

أما كلمة (نَهُيَ) وما شابهها كـ (قَضُيَ) فإن القاعدة الصرفية تقضي أن الياء تبدل واوا؛ إذا وقعت بعد ضمة، فأصل هذه الصيغ وأمثالها صرفيا (في البنية العميقة deep-structure) " ص + ح + ص + ح + ي+ ح "؛ فقَرَّبَ الناطق في كلامه (up-structure) بهذه الكلمات وأمثالها حركة الكسرة ؛ التي هي من لوازم الياء؛ لتصبح حركة مزدوجة فقط، ولتنشأ بذلك الواو؛ نتيجة الانتقال من الضمة إلى الفتحة، وذلك وفق القاعدة (الفنولوجية) التالية:

حرف الياء (شبه العلة) ـــــــ←حرف الواو (شبه العلة)/*ــــ حركة الضم القصيرة.

وتعني حرف الياء (شبه العلة) يصبح حرف الواو (شبه العلة) إذا وقع (حرف الياء – شبه العلة) بعد حركة الضمة القصيرة .

وما ذلك إلا أن نطق حرف الواو يجعل معظم الشفتين – كما يقول ابن جني– يضم، ويدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس ويتصل الصوت(١)، وذلك يتناسب ويتجانس مع الضمة؛ من خلال معرفة كيفية النطق؛ الذي يتشابه مع صوت الواو، ونحن إذا عرفنا ذلك فلا بد من

معرفة تلك النتيجة؛ التي قررها الرضي من أن الضمة قبل الواو أخف من الفتحة قبلها للمجانسة التي بينهما(٢).

---

(١) سر صناعة الإعراب ط١، ١/٨

(٢) شرح الشافية ١/١٣٢،

والنتيجة أن التجانس والتقريب بين الحركات وأنصافها قد أديا إلى كسر القاعدة الصرفية المشهورة؛ التي تقول إن الفتحة أخف من الضمة .

أما كلمتا (يَقْوُلُ ويَقْوُمُ) فالذي حدث إنما هو نقل حركة أحد أصوات حروف العلة (أنصاف الحركات) وهما (الواو والياء) إلى الحرف الصحيح الساكن غير المتحرك الواقع قبلهما، وقد ترتب على ذلك الإجراء اللغوي بقاء الحرف المعتل دون حركة (ساكنا)، ولذلك سمي (الإعلال بالتسكين)، فإذا كانت الحركة المنقولة من جنس الحرف المعتل بقي كما هو نحو " يَقُولُ ويَقُومُ " وذلك بنقل حركة الواو في الكلمتين إلى الحرف الصحيح الساكن قبلها . ويمكن توضيح ذلك بالقاعدة (الفنولوجية) التالية:

حرف الواو (شبه العلة) ←—— حركة الضمة الطويلة / *—— حركة الضمة القصيرة .

وتعني: حرف الواو (شبه العلة) تصبح حركة الضمة الطويلة عندما تُسْبَقُ بحركة الضمة القصيرة . أما الكلمات التالية (طُيْبِى، مُيْقِن، مُيْسِر مُوْقِد... إلخ.) فإن القاعدة الصرفية تقضي في أمثال هذه الكلمات جعل كل من الواو والياء الساكنتين المضموم ما قبلهما واوا مدية خالصة، وقد نشأ ذلك من خلال تتابع ضمة وكسرة، أو كسرة وضمة نتيجة لثقل هذا التتابع؛ ولذلك تخلص الناطق العربي من حركة الكسرة التي وقعت بعد الضمة،وتصرف في الضمة التي تلت الكسرة بجعلهما حرفا مديا خالصا .

الكسرة القصيرة ←—— ضمة طويلة /*—— ضمة قصيرة

وكذا:

الضمة القصيرة ←——— كسرة طويلة / *—— كسرة قصيرة

أما كلمة (أُأْمن) وما شابهها، فإن القاعدة الصرفية تقضي بأن الهمزتين إذا

اجتمعتا، وحركت الأولى منهما، وسكنت الثانية،قلبت هذه الثانية من جنس حركة الأولى، فتبدل واوا إذا ضمت الهمزة الأولى، وألفا إذا فتحت، وياء إذا كسرت . وإنما حدث هذا لوجود التجانس والتماثل بين الحركة والحرف .

الهمزة الساكنة ←——— حرف مد (ألفا أو واوا أو ياء) / *———
حركة فتحة أو كسرة أو ضمة قصيرة .

وفي وسعنا أن نلحق بهذه الظاهرة ما لوحظ من ميل بعض القبائل العربية البدوية؛كبني تميم وأسد وسكان شرق الجزيرة العربية؛ إلى الضم، وميل الحجازيين إلى الكسر في بعض الصيغ(١) فيما عرف – عند اللغويين القدماء – بظاهرة المعاقبة، فقد قال ابن جني فيما رواه عن الفراء(٢): أهل الحجاز يسمون الصَّوَّاغ: الصَّيَّاغ،قال:ويقولون: المياثر والمواثر والمواثق والمياثق، وأنشد لأعرابي:

حمىً لا يحل الدهـــرَ إلا بإذْنِنَا   ولا نسْأَلُ الأقْوامَ عقْدَ المَيَاثِقِ

وسمع الكسائي بعض أهل العالية يقول: لا ينفعني ذلك ولا يضورني. وتميم تقول: القُنْوَة، والحجازيون: القِنْيَة، ونقل عن بني أسد أنهم يقولون: عزوته إلى أبيه، ويقول غيرهم: عزيته إلى أبيه: نسبته إليه أشد العزْي . وبناء عليه فإن قاعدة المعاقبة بين الواو والياء؛ حيث يؤثر عن تميم نطق الصيغة بالواو؛ على حين تنطقها قريش بالياء، وهذا واضح في الكلمات التالية: صُوَّام، قُوَّام، نُوَّام، يغورني، يسوغه،ويغور، يطمو، ينمو، حكوت، قلوت، في مقابل: صِيَّام، قِيَّام،

---

(١) الراجحي، عبده، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية، ص: ١٣٢.

(٢) ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، ت: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ٢/٦٥،

نيَّام يغيرني، يسيغه، يغير، يطمي، ينمي، حكيت، قليت⁽¹⁾؛ إنما أتت نتيجة للميل إلى التناسب والتقريب بين أصوات الكلمات؛ التي ذكرناها سابقا؛ فلا سبيل – بعدئذ– إلى إنكار الرأي القائل بأن نزوعا إلى التقارب بين الحركات (الصوائت) داخل الصيغة العربية قد حدا بمضارعة حركة لأخرى لضرب من التجانس بين الحركات؛ حيث حاكت حركة سابقة أو لاحقة لها .

وليست اللغة العربية بدعا في هذه الظاهرة (تجانس الحركات vowel harmony بل وجدت في بعض اللغات العالمية؛ كالتركية مثلا، ولنتأمل سلوك الحركة (الصائت) في الكلمات التركية الآتية:

	2		1
سني	disim	سن	dis
بيتي	evim	بيت	ev
قلبي	gonulum	قلب	gonul
عيني	gozum	عين	goz
رأسي	basim	رأس	bas
وردتي	gulum	وردة	gul
ذراعي	kolum	ذراع	kol

لاشك أن ضمير الملكية (في المجموعة الثانية) قد لحق أصل الصيغة (في المجموعة الأولى)، وقد توافقت حركة ضمير الملكية مع حركة أصل الصيغة في كونهما حركة تنطق من مؤخرة الفم ومدورة ⁽٢⁾.

---

(١) ينظر في ذلك إلى دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح، ص: ٩٧وما بعدها،

(٢) ينظر في ذلك إلى كتاب " Generative Phonology لمؤلفه Sanford A، Schane نشر عام ١٩٧٣م في Prentice-Hall, Inc، Englewood Cliffs, New Jersay pp: 49-52

كما نجد أن الزيادة الإلحاقية لمورفيم الجمع في هذه اللغة هي (lar or ler)، ويقوم أساس الاختيار والتفضيل بينهما على الحركة السابقة في المقطع المتقدم في الكلمة، ولنتأمل الأمثلة الموزعة على مجموعتين (١، ٢):

١		٢	
رجال	adamllar	ورود	guller
أجراس	ziller	طوابع بريد	pullar
أيدي	eller	جمع ذراع	kollar
نبات	kizlar	عيون	gozler

وباستقراء الألفاظ الموزعة على المجموعتين نلاحظ أن الزيادة الإلحاقية لـــ(مورفيم) الجمع يكون (ler) عندما يشتمل اللفظ حركة (صائت) من نوع (**u I e or o**)، ويكون (lar) حين يحتوي اللفظ حركة (صائت) من نوع (a u o or I).

ويجدر بنا أن ندرك أن الزيادة الالحاقية لـــ(مورفيم) الجمع (ler) لا تزاد جزافا ولكنها تكون مع الحركات (u I e o) وهي حركات تنتج من الجزء الأمامي للفم في اللغة التركية، وفي المقابل فإن الزيادة الإلحاقية لـــ(مورفيم) الجمع (lar) تكون فيما عدا ذلك، وهذا يعني بوضوح أن الحركات التي تنتج من مقدمة الفم – أيا كان نوعها – تقضي زيادة (مورفيم) الجمع (lar) فحسب .

وبإيجاز فإن تعيين فهمنا لأصوات الحركات (الصوائت) التي تنتج في اللغة التركية، وتحديد مواقع نطقها داخل الفم يساعدنا على اختيار نوع (المورفيم) الذي يزاد على أصل الكلمة في الجمع⁽¹⁾ .

---

(١) ينظر كتاب" Introduction to phonology لمؤلفه " clarence sloat " نشر =

وبناء على ما سبق من الأمثلة المأخوذة من اللغة التركية يمكننا أن نصنف تجانس وتماثل الحركات " vowel harmony " في الجدول التالي:

rounded حركة مدورة		" حركة غير مدورة **unrounded**		
High	**Low**	**High**	**Low**	
u	**o**	**l**	**a**	مؤخرة الفم
u	**o**	**i**	**e**	مقدمة الفم

فإذا افترضنا أن شكل صيغة الزيادة الإلحاقية لـــ(مورفيم) الجمع في اللغة التركية يكون أساسا (lar) في اللغة التركية أمكننا الركون إلى القاعدة الصوتية القائلة بأن اختيارنا للحركة (الصائت) (a or e) في (مورفيم) الجمع يكون على الشكل التالي:

A ←—— e في صيغة الجمع (lar) في إجراء لغوي لتقريب الحركات بعضها من بعض،/ *ـــــــ حركة منتجة من مقدمة الفم.

ونلاحظ أيضا – بعد استقرائنا الجدول – أن تغيير e ←——— a في صيغة الجمع (ler) يكون تقريبا أو مجانسة صوتية بين الحركات (الصوائت) المنتجة من مقدمة الفم لتلك الحركات المنتجة من مؤخرته /* ـــــــــــــ حركة تنطق من مؤخرة الفم(١) .

وهذا يعني أن تغيير a ←——— e بعد حركة تنطق من مقدمة الفم

= عام ١٩٧٨م، في Pretice-Hall,Inc، Englewood Cliffs,N، J، P: 116

(١) وتقرأ هذه القاعدة الفنولوجية هكذا: أن (a) تصبح (e) في مورفيم الجمع (**lar**)، وأن (e) تصبح (a) في المورفيم نفسه (ler) في اللغة التركية عندما يحتوي أصل الصيغة حركة تنطق من مقدمة الفم أو من مؤخرته،

والعكس، هي عملية صوتية، وإجراء لغوي طبيعيين تلجأ إليها الحركات في اللغة التركية في نوع من البحث عن التقارب والتجانس والتشاكل بين الحركات vowel harmony .

المضارعة الصوتية عند القدماء وبعض اللغويين المحدثين:

وأول من أشار إلى هذه الظاهرة من علماء اللغة العربية والنحو القدماء سيبويه (ت ١٨٠هـ)؛ فقد عقد في كتابه (الكتاب) بابا أسماه (باب الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه، والحرف الذي يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه) (١)، وهو بهذا يتحدث عن إجراءين لغويين تتناولهما ظاهرة المضارعة الصوتية بين الحروف اللغوية:

أولهما: ذلك الحرف الذي يضارع (أو يحاكي أو يماثل) به حرف آخر؛ وهذا الحرف الأخير هو من موضع الحرف الأول (مخرجا أو صفة أو كليهما).

ثانيهما: ذلك الحرف الذي يضارع (أو يحاكي أويماثل) به حرف وهذا الحرف الأخير ليس من موضع الحرف الأول (مخرجا أو صفة أو كليهما)، وإنما هو من موضع حرف آخر (سواء أكان في المخرج أو الصفة أم كليهما)، وقد ضرب مثالا للإجراء اللغوي الأول بالكلمات؛ التي اشتملت على حرف الصاد الساكنة؛ إذا كانت بعدها حرف الدال؛ وذلك نحو (مصدر وأصدر والقصد)؛ لأنهما قد صارتا (الصاد الساكنة والدال) في كلمة واحدة؛ فضارعوا (حاكوا أو شابهوا) بالصاد الساكنة أشبه الحروف بالدال من موضعه؛وهي الزاي؛ لأنها مجهورة غير مطبقة، ولم يبدلوها زايا خالصة كراهية الإجحاف بها للإطباق، بل قد نقل سيبويه في هذا الموضع أن بعض العرب الفصحاء يجعلونها زايا

---

(١) الكتاب ط١، ٢/٤٢٣ وما بعدها،

خالصة؛كما جعلوا الإطباق ذاهبا في الإدغام؛ وذلك قولك في: التصدير ← التزدير، وفي: الفصد ←الفزد، وفي: أصدرت ← أزدرت، وإنما دعاهم إلى أن يقربوها ويبدلوها أن يكون عملهم من وجه واحد؛ وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد؛ إذ لم يصلوا إلى الإدغام، ولم يجسروا على إبدال الدال صادا؛ لأنها ليست بزيادة كالتاء في افتعل مثل اصطبر، والبيان عربي، فإن تحركت الصاد لم تبدل؛ لأنه قد وقع بينهما شيء؛ فامتنع من الإبدال؛ إذ كان يترك الإبدال وهي ساكنة، ولكنهم قد يضارعون بها نحو صاد صدقت، والبيان فيها أحسن، وإنما ضارعوا بها وهي بعيدة نحو: مصادر والصراط؛ لأن الطاء كالدال، والمضارعة هنا – وإن بعدت الدال – بمنْزلة قولهم: صويق ومصاليق؛ فأبدلوا السين صادا؛كما أبدلوها؛ حين لم يكن بينهما شيء في: صبقت ونحوه، ولم تكن المضارعة هنا الوجه؛ لأنك تخل بالصاد؛ لأنها مطبقة، وأنت في: صبقت تضع في موضع السين حرفا أفشى في الفم منها للإطباق؛ فلما كان البيان ههنا أحسن لم يجز البدل .

وضرب مثالا للنوع الثاني: بالشين لأنها – كما يقول – استطالت؛ حتى خالطت أعلى الثنيتين؛ وهي – في الهمس والرخاوة – كالصاد والسين، وإذا أجريت فيها الصوت وجدت؛ ذلك بين طرف لسانك وانفراج أعلى الثنيتين؛ وذلك قولك: أشـدق؛ فتضارع بها الزاي، والبيان أكثر وأعرف، وهذا عربي كثير. والجيم – أيضا – قد قربت منها فجعلت بمنْزلة الشين؛ من ذلك قولهم في: الأجدر ← الأشدر، وإنما حملهم على ذلك؛ أنها من موضع حرف قد قرب من الزاي، ولا يجوز أن يجعلها زايا خالصة؛ ولا الشين؛ لأنهما ليسا من مخرجها.
وسيبويه هنا يفرق بين إجراءين لغويين حدثا في أصوات حروف هذه الألفاظ:

الأول: يبدل حرف بحرف؛ كما نراه في التسدير، ويسدل ثوبه؛ فقد نقل عن بعض العرب أنهم نطقوا: التزدير، ويزدل ثوبه؛ لأن السين في موضع الزاي؛

وليست بمطبقة؛ فيبقى لها الإطباق؛ كما نجده مع الصاد .

أما الثاني: فيُشَمُّ الحرف رائحة حرف آخر؛ بمعنى أنه يُضَارَع به ذلك الحرف؛ لعلة صوتية؛ كما نجده في: التصدير، وأصدق والقصد والفصد؛ فقد نقل سيبويه عن بعض العرب؛ أنهم ينحون بالصاد الساكنة؛ إذا وقعت بعدها الدال ناحية الزاي؛ فتصير حرفا مخرجه بين مخرجي الصاد والزاي، ولم يبدلوها زايا خالصة؛ محافظة على الإطباق؛ لئلا يذهب لفظ الصاد بالكلية؛ فيذهب ما فيها من الإطباق، والإطباق فضيلة في الصاد؛ فيكون إجحافا بها، وليس كذلك السين في: التسدير ويسدل ثوبه؛ لأنه لا إطباق فيها يذهبه القلب؛ فلم تجز المضارعة لذلك السبب .

ونرى صدى لهذا الرأي عند كثير من اللغويين والنحاة العرب القدماء، ومن نهج على نهجهم من المتأخرين، فمن القدماء – مثلا – ابن جني (ت ٣٩٥هـ) حينما أشار إلى هذه الظاهرة الصوتية – بصفة عامة – ، وهو يتحدث عن (الإدغام الأصغر)(١)، وحدده بقوله: هو تقريب

الحرف من الحرف؛ وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك "، وهو عام عنده في الحروف والحركات؛ حيث عد منه الإبدال في: صيغة الافتعال، والإمالة، وهذا التقريب بين الحروف والحركات – عنده – هو مظهر واضح من مظاهر المضارعة الصوتية بين أصوات حروف الكلمة عندنا، وقد أطلق عليها مرة أخرى اسم (التجنيس)(٢) إشارة إلى ما يلحق أصوات الحروف والحركات في بعض الألفاظ من التقريب بينها في المخارج والصفات؛ ميلا إلى

---

(١) الخصائص ٢/١٤١،

(٢) ابن جني، المنصف(شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني)، ت: إبراهيم مصطفى وآخرين، ط١، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٩٥٤م، ٢/٣٢٤.

المناسبة والتقريب بين الصوتيين؛ وذلك يقصد التخفيف على أعضاء الجهاز النطقي في أثناء الكلام .

واقتفى أثرهما – في جميع ما قالاه – كل من ابن سيده في مخصصه(١)، وابن يعيش في شرحه للمفصل(٢)، ومن المتأخرين ما نجده عند الدكتور عبد العزيز مطر، حيث أشار إلى هذه الظاهرة الصوتية بالقول: «إنها عبارة عن تأثر الأصوات المتجاورة، بعضها ببعض، تأثرا يؤدي إلى التقارب في الصفة أو المخرج، تحقيقا للتناسب الصوتي، وتيسيرا لعملية النطق، واقتصادا في الجهد العضلي»، غير أنه سماها (مماثلة صوتية)(٣)، وأشار إليها – أيضا – الدكتور إبراهيم أنيس، وأطلق عليها مصطلح (المماثلة(٤) Assimilation)، وأطلق الدكتور كريم زكي حسام الدين على هذه الظاهرة الصوتية التي تحدث لحروف الكلمة ، اسم (التحييد)، وعرفه بأنه «تداخل أو ذوبان (فونيم) في (فونيم) آخر حتى يصير (فونيما) واحدا في سياق صوتي معين. أو هو: إلغاء أو محو لـ(فونيم) معين؛ نتيجة لتفاعله مع (فونيم) آخر يختلف معه في ملمح صوتي على الأقل، ويكون (الفونيم) الجديد الناتج عن عملية التحييد صورة جديدة، أو وسطا بين (الفونيمين) المحول عنه والمحول إليه، نتيجة عملية المماثلة»(٥) .

---

(١) المخصص ٢٦٩/٤وما بعدها،

(٢) شرح المفصل ١٠/٤٧، ٤٩، ١٤٩،

(٣) مطر، عبد العزيز، لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة. وزارة الثقافة – الدار القومية– القاهرة سنة ١٣٨٦هـ، ص: ٢٤٥،

(٤) أنيس، الأصوات اللغوية، ص: ١٧٨وما بعدها،

(٥) حسام الدين، كريم، أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢سنة ١٩٨٥م، ص: ١٩١وما بعدها،

رأي نقدي:

وبالنظر إلى التراث اللغوي العربي؛ الذي تناول هذه الظاهرة الصوتية قديما وحديثا، نتبين – جليا – أن كثيرا من النحاة واللغويين العرب قدماء ومتأخرين قد اختلط عليهم الأمر – ههنا – أشد الاختلاط؛ فعدوا إشمام حرف (التاء) بعض صفات حرف (الطاء) عند النطق، ليتواءم معه في البيئة اللغوية في (اصتبر ← اصطبر) ضربا من الإبدال؛ سواء بسواء؛ مثل قولهم (اصّبر) على معنى إقامة حرف الصاد مقام حرف التاء بعد حذفه؛ طلبا للمناسبة .

وعندي أن الأمر ليس كذلك، فالمثال الأول وما نحا نحوه ليس إبدالا بالمعنى؛ الذي هم قرروه في كتبهم ومؤلفاتهم، وإنما هو خلع بعض صفات حرف الطاء على أخيه حرف التاء؛ ليبقى في مكانه دون أن تطغى عليه صفات الحرف السابق له؛ فيبدله من نوعه، أو يفنيه ويحل مكانه؛ فهو صورة واحدة من صور عديدة لحرف التاء (الفونيم) بسبب وجوده في بيئة لغوية معينة، وهو ما يدعى بـ(الألفون)(١)، وذلك بخلاف المثال الآخر؛ حيث تحولت التاء صادا؛ عندما تغلبت صفات حرف الصاد على أحد صور حرف التاء (الألفون) التي هي تاء بين طاء وتاء؛ وذلك بتأثير الحرف السابق، وظننا أنه كان أمام الناطق العربي – وهو الذكي في التصرف بحروف لغته – خياران:

فإما أن يشم الصاد صفات حرف الطاء؛ لتنطق طاءين (اطّبر)، وفي ذلك محذور؛ وهو ضياع لمح الأصل لصيغة (صبر)، وإما أن تطغى صفات حرف الصاد على (ألفون) حرف التاء (الطاء) نتيجة لاستعلاء وتفخيم وصفير حرف الصاد، وكونه الأصل في الصيغة؛ فاختار إشمام (ألفون) التاء (الطاء) صفات

---

(١) الخولي، الأصوات اللغوية، ص: ٥٩وما بعدها، وكذلك كتاب **phonology** لمؤلفه: lass ص: ١٨وما بعدها،

حرف الصاد، فاجتمع صادان في الصيغة (الأول ساكن والثاني متحرك) فأدغم أحدهما في الآخر فصارا صادا واحدا مشددة هكذا:

/ت/
/ت/ ← [ط] / ـــ*/ ص/، على سبيل المضارعة التقدمية الجزئية .
[ط] ← [ص] ـــ*/ص /، على سبيل المضارعة التقدمية الكاملة .

والحق أن هذه المصطلحات الدقيقة مما يتصل بموضوع الدراسة (الإبدال والقلب والعوض والزيادة والمضارعة أو الإشمام) قد اختلطت في عبارات اللغويين والنحاة القدماء والمتأخرين حول هذه الظاهرة الصوتية، ويعود جزء كبير من ذلك إلى تداخل هذه المصطلحات بعضها في بعض تداخلا عظيما، وعدم تحديدها تحديدا دقيقا قديما وحديثا، كما أشار ابن سيده(١) إلى أن الفروق بين هذه المعاني دقيقة لا تكاد تجد من يقف عليها، فقد عَرَّفَ البدل: بأنه وضع الشيء مكان غيره، وعَرَّفَ القلب: بأنه تصيير الشيء على نقيض ما كان عليه، وعَرَّفَ الزيادة: بأنها إلحاق الشيء ما ليس منه، وعَرَّفَ النقصان: بأنه إسقاط الشيء مما كان فيه ... والفرق بين البدل والقلب في الحروف: أن القلب يجري على التقدير في حروف العلة، ومناسبة بعضها لبعض، وشدة تقاربها؛ فكأن الحرف نفسه انقلب من صورة إلى صورة إذا قلت: قام والأصل قَوَمَ فكأنه لم يأت بغيره؛ بدلا منه؛ ولم يخرج عنه؛ لأن شدة المقاربة للنفس؛ بمنزلة النفس فهذا في حروف العلة، فأما في غيرها فيجري على البدل؛ لتباعد ما بين الحرفين؛ فلم يجب أن يجري مجرى ما يتقارب التقارب الشديد؛ بل وجب فيما تقارب أن يقدر أنه لم يخرج من التغيير عنه؛ فلذلك أجري على طريقة القلب، فأما ما تباعد فيقتضي الخروج عنه في التغيير .

---

(١) المخصص لابن سيده، المجلد ٤ ص: ١٣/ ٢٦٧ وما بعدها،

وقال عبد العزيز بن جمعة بن زيد الموصلي (شارح ألفية ابن معطي)(١): ((إبدال الحرف هو عبارة عن إقامة الحرف مقام آخر في محله؛ بعد حذفه؛ طلبا للمناسبة مطلقا أو الضرورة ، والفرق بين البدل والعوض: أن العوض يكون في غير محل المعوض منه؛ كالألف في ابن؛ والياء في سفيرج؛ فإنهما في غير محل اللام؛ بخلاف البدل، والفرق بين القلب والبدل أن القلب لا يكون إلا في حرف اللين، والبدل يكون فيها وفي غيرها فهو أعم من القلب)) .

أما الإشمام أو المضارعة فهي تعني – عندي – إعطاء الحرف شيئا من خصائص حرف آخر بينهما مناسبة في المخرج أو الصفة أو كليهما، ليس على معنى إحالته إليه وإقامته مقامه، بل يجعله وسطا بين طرفين متنافرين .

وبناء عليه فإن ما حدث في إشمام حرف (التاء) شيئا من خصائص حرف (الطاء) عند تجاور حرفي (الصاد والتاء) في صيغة (افتعل)، فنطق بها وسطا بين صوتي التاء والطاء فقيل (اصطبر) وما نحا نحوه، ليس إبدالا أو قلبا أو تعويضًا – كما رأينا سابقًا – بل هو حالة وسطى بين حالتين مختلفتين .

فإذا استقر لدينا ذلك فإننا لسنا مع أولئك اللغويين والنحاة العرب – قدماء ومتأخرين – ممن أطلق على هذا الإجراء اللغوي إبدالا أو قلبا أو تعويضا . ومن أولئك اللغويين العرب القدماء – مثلا – ابن جني في كتابه (سر صناعة الإعراب)(٢) فقد قال: ((وأما البدل فإن فاء افتعل إذا كانت زايا قلبت التاء دال، وذلك نحو: ازدجر وازدهى وازدار وازدان وازدلف وازدهت ونحو ذلك، وأصل هذا كله: ازتجر وازتهى وازتار وازتان وازتلف وازتهف؛ لأنه (افتعل) من الزجر والزهو والزور والزين والزلف، ولكن الزاي لما كانت مجهورة والتاء

---

(١) شرح ألفية ابن معطي ١٣٤٥/٢، ت: علي موسى الشوملي، ط١، سنة ١٤٠٥هـ، مكتبة الخريجي.

(٢) سر الصناعة ٢٠٠/١،

مهموسة، وكانت الدال أخت التّاء في المخرج، وأخت الزاي في الجهر، قربوا بعض الصوت من بعض؛ فأبدلوا التاء؛ أشبه الحروف من موضعها بالزاي وهي الدال؛ فقالوا :ازدجر وازدار، ونحو من هذا التقريب في الصوت قولهم في سبقت: صبقت، وفي سقت: صقت، وفي سملق: صملق، وفي سويق: صويق؛ وذلك أن القاف حرف مستعل والسين حرف غير مستعل، إلا أنها أخت الصاد المستعلية، فقربوا السين من القاف بأن قلبوها إلى أقرب الحروف إلى القاف من مخرج السين وهو الصاد، وقد قلبت تاء افتعل دالا مع الجيم في بعض اللغات، قالوا: اجدمعوا في اجتمعوا، واجدز في اجتز، وأنشد:

فَقُلْتُ لصَاحِبِي: لا تَحْبِسَانا   بِنَزْعِ أُصُولِه واجْدَزَّ شِيحَا

وقد أبدلوا الدال من تاء تولج فقالوا: دولج، وقد قلبوا تاء افتعل أيضا مع الذال لغير إدغام حكى أبو عمرو عنهم: اذدكر، وهو مذدكر .

ومثل ذلك ما نجده أيضا عند ابن معطي في ألفيته(١):

ويُبْدِلون التَّاءَ دَالاً قَالُوا: ازْدَانَ يَزْدَانُ لَهُ مِثَالُ
والتَّاءَ طَاءً في فَحَصْطُ واضْطَجعْ   والنُّونَ مِيماً مِثْلَ عَنْبَر سُمِعْ

وعدها الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) – يرحمه الله – في المفصل(٢) ضربا من القلب، وذهب على نهجه شارح المفصل ابن يعيش(٣) – يرحمه الله تعالى – فسماها مرات عديدة قلبا، وجعلها إبدالا أحيانا أخرى، وعدها ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) – يرحمه الله – في ألفيته(٤) إبدالا؛ حيث قال:

---

(١) شرح ألفية ابن معطي، ٢/١٣٥٧،

(٢) المفصل، ص: ٤٢٨ وما بعدها،

(٣) شرح المفصل ١٠/ ١٢١ وما بعدها،

(٤) كتاب أمهات الكتب (متون)، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ص: ٩١،

ذُو الَّلينِ فا تا في افْتِعَالٍ أُبْدِلاَ   وشَذَّ في ذِي الهَمْزِ نحو ائْتَكلاَ
طا تا افْتِعَال رد إِثْرَ مُطْبَقٍ   في ادَّان وازدد وادَّكر دَالاً بَقِي

والخلط نفسه نجده عند كثير من علماء اللغة العربية المحدثين، ومن أشهر هؤلاء: الدكتور إبراهيم أنيس– يرحمه الله– فقد سماها في كتابه (الأصوات اللغوية)(١) قلبا في أكثر من موضع، وعدها الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه (المنهج الصوتي للبنية العربية)(٢) قلبا مرات عديدة، وإبدالا مرات أخرى.

وسماها الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (التطور اللغوي – مظاهره وعلله وقوانينه)(٣) قلبا بعد أن ضرب لها عدة أمثلة من ألفاظ اللغة العربية .

فإذا تأملنا فيما ذكره كثير من الصرفيين العرب القدماء حول هذه الظاهرة نراهم– إلا ما ندر– لم يتناولوها في رسائلهم ومؤلفاتهم بشيء من الوضوح والبيان، بله التقعيد، وأقصى ما نجده عندهم هو التفريق بين إدغام كامل وآخر ناقص، وتحدثوا عن بعض الأمثلة؛ التي يمكن أن تدخل تحت قواعد التأثر بالمجاورة، ومتى يكون؛ وذلك في الفصل الذي سموه بـ(الإعلال والإبدال)، فمسائل مثل سيّد وميّت وطيّ وليّ ومرضيّ وصيّم ونيّم ومقول ومصون واطّلب واظّلم واصّلح واذّكر وادّكر واتّرد . من مسائل الإبدال؛ لأن أمثال ما ذُكر هو أقصى مراحل التيسير في الجهد العضلي؛ حيث يقَرَّب صوتٌ من آخر؛ لتشابه بينهما؛ إما في الصفة أو المخرج أو كليهما.

ولعل من أولئك القلائل؛ الذين أوضحوا كثيرا من أسباب ذلك القلب

---

(١) الأصوات اللغوية ص: ١٧٨ وما بعدها.

(2) شاهين، عبد الصبور، المنهج الصوتي للبنية العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٩٨٠م، ص: ٢٠٥.

(٣) التطور اللغوي " مظاهره وعلله وقوانينه"، ص: ٢٢ وما بعدها.

والإبدال؛ مما تقبله القوانين الصوتية؛ ابن يعيش – يرحمه الله – في شرحه على المفصل⁽¹⁾؛ حيث قال: تقلب تاء الافتعال إلى الطاء والدال والثاء والسين، فأما مع الطاء فمع حروف الإطباق ويلزم ذلك، ويهجر الأصل كما هجر: في نحو قام وقال، وذلك أنه قد يستثقل اجتماع هذه الحروف المتقاربة؛ كاستثقال اجتماع الأمثال، وإذا كانت في كلمة واحدة، ولم يكن الحرفان منفصلين ازداد ثقلاً، كما كان المثلان، إذا لم يكونا منفصلين أثقل؛ لأن الحرف لا يفارقه ما يستثقل، وكانت هذه الحروف مخالفة للتاء؛ لأنها مستعلية مطبقة، والتاء حرف منفتح غير مطبق؛ فأبدلوا من التاء طاء؛ لأنها من مخرجها؛ إذ لولا إطباق الطاء لكانت دالا، ولولا جهر الدال لكانت تاء؛ فمخرجهن واحد، وإنما ثم أحوال تفترق بهن من الإطباق والجهر والهمس؛ فهي موافقة لما قبلها في الإطباق؛ فيتجانس الصوتان، وصار العمل فيهن من جهة واحدة؛ وقد علم أنه لا لبس في ذلك، وتقلب تاء الافتعال دالا؛ فإذا كان قبلها دال أو ذال أو زاي؛ وذلك من قبل أن هذه الحروف مجهورة والتاء حرف مهموس، فأرادوا للتقريب بين جرسيهما؛ فأبدلوا من التاء دالا؛ إذ كانت من مخرج التاء وتوافق ما قبلها في الجهر، وليس فيها إطباق؛ كما أن التاء ليس فيه إطباق؛ فكانت الدال أشبه بما قبلها؛ فلذلك أبدلوها دالا، ولم يبدلوها طاء، وقالوا: مثرد وهو مفتعل من الثرد، ولك فيه ثلاثة أوجه: أحدها البيان وهو الأصل، والثاني مترد بالتاء المدغمة والمعجمة بنتين، والثالث مثرد بالثاء المعجمة بثلاث، فأما الأول وهو البيان؛ فلأنهما ليسا حرفين متجانسين، فإذا أسكن الأول اضطر الناطق إلى الإدغام، وأما إدغام الثاء في التاء؛ فلتقاربهما وهما مع التقارب مهموسان، وذلك مما يقوي إدغام أحدهما في الآخر، قال سيبويه والبيان أحسن وهو

---

(١) شرح المفصل ١٠/١٤٨،

القياس، لأن الأول إنما يدغم في الثاني، وأما الثالث فهو مترد بقلب التاء إلى جنس الأول، وإدغام الثاني في الأول، وعلى هذا قالوا يظلم،وهي عربية جيدة؛كما قال سيبويه، وتبدل تاء الافتعال سينا فمع السين نحو: اسّمّع فهو مسّمع، ويجوز الأصل، ولا يجوز إدغام السين في التاء فيقال: إتّمع، وإن كانا مهموسين؛ وذلك لمزية السين على التاء بالصفير فاعرفه، وقالوا: اطّلب واطّعنوا واطّلعوا والمراد اطتلب واطتعنوا واطتلعوا، فثقل اجتماع المتقاربين؛ لأنهما من حروف طرف اللسان، وكرهوا الإدغام في التاء؛ فلم يقولوا: اتَّلع واتَّلم في اطّلع واطّلم؛ لئلا يلبس باتعد واتزن؛ هكذا قاله الفراء؛ فأبدلوا من التاء طاء؛ لأنها من مخرجها؛ فأدغموا الطاء في الطاء؛ وصار الإدغام – ههنا – لازما ومثله يطرد، وتقلب تاء الافتعال مع الظاء طاء؛ فيجوز البيان؛ فتقول:اظطلم من الظلم واظطن من الظن، وقد يبدلون من الطاء المبدلة من التاء ظاء، ثم يدغمون الظاء الأولى فيها؛ فيقولون: اظّلم وذلك لما أرادوا تجانس الصوت، وتشاكله قلبوا الحرف الثاني إلى لفظ الأول، وأدغموه فيه؛ لأنه أبلغ في الموافقة والمشاكلة، ومن العرب من إذا بنى مما فاؤه ظاء معجمة افتعل أبدل التاء طاء غير معجمة، ثم أبدل من الظاء، التي هي فاء، طاء لما بينهما من المقاربة، ثم يدغمهما في الطاء المبدلة من تاء افتعل، فيقول: اطّطهر حاجتي، واطّطلم والأصل: اظتهر واظتلم، والصحيح المذهب الأول؛ لأن القياس في الإدغام قلب الحرف الأول إلى لفظ الثاني،وأما الضاد فيجوز فيه وجهان البيان والإدغام، فالبيان: نحو قولك اضطرب، واضطجع أبدل من التاء طاء لما ذكرناه لا غير، وقالوا: اضَّرب واضَّجع ويضَّجع فهو مضَّرب ومضَّجع، ولا يجوز إدغامها في الطاء؛ فلا تقول: اطَّرب ولا اطَّجع؛ لئلا يذهب تفشي الضاد بالإدغام، ويقال: اصطبر يصطبر فهو مصطبر؛ واصَّبر يصَّبر فهو مصَّبر على قلب الثاني إلى لفظ الأول، وقد قرىء ﴿إلا أن يصَّلحا﴾ على ما حكاه سيبويه عن هارون، ومثله

قولهم: اصطفى واصَّفى واصطلى واصَّلى، ولا يجوز إدغام الصاد في الطاء؛ فلا يقال: اطَّبر ولا مطَّبر ولا اطَّلح ولا مطَّلح؛ لئلا يذهب صفير الصاد . وأما قلب التاء مع الدال والذال والزاي دالا فنحو قولهم: في افتعل من الدين والذكر والزين أدَّان وادَّكر وازدان، وإنما وجب إبدالها دالا – هنا – لأنهم كرهوا اجتماعهما للتقارب ولاختلاف أجناسها؛ وذلك أن الدال والذال والزاي مجهورة والتاء مهموسة، فأرادوا تجانس الصوت؛ فأبدلوا من التاء الدال؛ لأنها من مخرجها وهي مجهورة؛ فتوافق بجهرها جهر الدال والذال؛ فيقع العمل من جهة واحدة، ثم أدغموا الدال والذال فيها، ولم يجز الإدغام في الزاي لأن الزاي؛ حرف من حروف الصفير، فلو أدغموها لذهب الصفير، ويجوز فيها بعد قلب التاء قلبان أحدهما أن تقلب الذال دالا، وتدغم في الدال التي بعدها، فتصيران في اللفظ دالا، واحدة شديدة، وهذا شرط الإدغام لأنهم يقلبون الحرف الأول إلى جنس الثاني، ثم يدغمونه فيه، والوجه الثاني أن تقلب الدال ذالا، وتدغم، فيكون اللفظ به ذالا معجمة، وهو قول من يقول في اصطبر: اصَّبر وفي اضطرب: اضَّرب فعلى هذا تقول: اذَّكر وازَّان، وإنما جاز قلب الأول إلى جنس الثاني؛ لأن الأول أصلي، والثاني زائد، فكرهوا إدغام الأصلي في الزائد، فقلبوا الزائد إلى جنس الأصلي، وأدغموه لما ذكرناه .

فإذا تأملنا ما قاله بعض الصرفيين العرب حول هذه الظاهرة تبين لنا الفرق بين ما نرى لزاما إيضاحه للقارئ عند إجراء ما حدث لصوت الحرف من تغيير، وما درج عليه هؤلاء الصرفيون في كتبهم من تعليل لحدوث ذلك التغيير .

قال عبد العليم إبراهيم في كتابه (تيسير الإعلال والإبدال): ((ادّعى أصلها: ادّتعو المجرد دعا، وعلى صيغة افتعل ادّتعو، وقعت تاء الافتعال بعد دال، فأبدلت دالا، وأدغمت في الدال، وقلبت الواو ألفا، لتحركها وفتح ما قبلها، وأصل اذّكر، ادّكر، اذدكر: اذتكر؛ وقعت تاء الافتعال بعد ذال؛

فأبدلت دالا، ثم أبدلت الذال دالا، وأدغمت في الذال، ووقعت تاء الافتعال أيضا بعد ذال، فأبدلت دالا، وقالوا ازدان وازّان، وأصلهما: ازتين، حيث وقعت تاء الافتعال بعد زاي، فأبدلت دالا، ثم أبدلت الدال زايا، وأدغمت في الزاي، ثم قلبت الياء ألفا، لتحركها وفتح ما قبلها، وقالوا: اتّصل، واتّسر، واتّعد، واتّعظ، حيث وقعت فاء الافتعال واوا أو ياء؛ فأبدلت تاء، وأدغمت في التاء، وقالوا:اصطحب واضطرب واصطلح واصطفى، وأصلها افتعل من صحب وضرب وصلح وصفي، وقعت تاء الافتعال بعد الصاد والضاد، فأبدلت طاء، وقالوا: اطّلع واطّهر ومدّكر، وأصلها افتعل من طلع، وطهر، وذكر؛ حيث وقعت التاء بعد الطاء والذال؛ فأبدلت طاء ودالا، وأدغمت في الطاء والذال، وقالوا: مدّكر، واظّلم، واطّلم، حيث وقعت تاء الافتعال بعد ذال في ذكر؛ فأبدلت دالا، وأبدلت الذال دالا، وأدغمت في الدال، ووقعت تاء الافتعال في ظلم بعد ظاء، فأبدلت طاء، وأبدلت الطاء ظاء، وأدغمت في الظاء، أما في اطّلم فهي افتعل من ظلم؛ أيضا حيث وقعت التاء بعد الظاء؛ فأبدلت طاء، وأبدلت الظاء طاء، وأدغمت في الطاء»(١) .

ولا نتفق إطلاقا مع هذا التحليل الصوتيّ الذي ذكر آنفا إلا في بعض النتائج؛ إذ لا خلاف في أن تاء الافتعال قد طرأ عليها شيء من التغيير فيما ذكر من أمثلة، بيد أن ما نراه في إجرائهم اللغوي هو قفز إلى النتيجة، وليس بحثا عن الأسباب والدواعي؛ التي ألجأت الناطق العربي إلى ذلك الإجراء اللغوي، ولكي نقف على حقيقة ما حدث – بجلاء – نورد طرفا من إجرائهم اللغوي لهذه الظاهرة مقارنا مع ما نذهب إليه تحليلا صوتيا لحقيقة ما حدث:

---

(١) إبراهيم، عبد العليم، تيسير الإعلال والإبدال، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ص: ٨١، ٩٣ – ٩٥، ١٠١،

١. قال عبد العليم إبراهيم في كتابه (تيسير الإعلال والإبدال): اذّكر، ادّكر، اذدكر، أصلها: اذتكر، وقعت تاء الافتعال في اذّكر بعد ذال؛ فأبدلت دالا، ثم أبدلت الدال ذالا، وأدغمت في الذال . كما وقعت تاء الافتعال في ادّكر بعد ذال؛ فأبدلت دالا، ثم أبدلت الذال دالا، وأدغمت في الدال، وفي اذدكر وقعت تاء الافتعال بعد ذال؛ فأبدلت دالا .

ولا يختلف معظم القدماء من علماء اللغة العربية والنحو وكثير من المحدثين من علماء اللغة العربية والنحو في التحليل الصوتي لما حدث في هذه الألفاظ وأمثالها عما رأيناه، ولنعد إلى ما نرتضيه مذهبا في هذه المسألة اللغوية؛ ففي لفظ (اذدكر) نقول:

إنه افتعل من الفعل الثلاثي (ذكر) فأصبح (اذتكر) اجتمع في هذا اللفظ كل من حرف الذال والتاء، وأدى تجاورهما– على هذا النحو – إلى صعوبة النطق، لأن الذال حرف مجهور، والجهر– كما ذكرنا سابقا – صفة قوة؛ في حين أن التاء حرف مهموس، والهمس – كما أوضحنا سابقا – صفة ضعف، وقد سبق أن ذكرنا أن صفتي الجهر والهمس متضادتان، واجتماعهما على هذه الصورة كاجتماع الضدين في وقت واحد؛ وذلك مستحيل منطقا وعقلا؛ مما جعل العربي – وهو ذكي في لغته يتصرف –؛ وذلك بإشمام حرف التاء شيئا من صفات أخيه حرف الدال؛ ولا يحتاج حرف التاء من أخيه الدال؛ الذي يتفق معه في المخرج والشدة وغيرهما إلا صفة الجهر؛ فأشم شيئا من هذه الصفة؛ ليتواءم مع حرف الدال، ويبقى في مكانه دون أن يفنى، أو يقلب إلى غيره فقالوا: اذدكر بدلا من اذتكر على سبيل المضارعة التقدمية الجزئية هكذا:

/ت/

/ت/ ← [د] ـــــ*/ ذ /، على سبيل المضارعة التقدمية الجزئية .

أما لفظ (اذّكر) فإنه تصرف ذكي من بعض العرب في نطق الصفة السابقة؛ حيث اجتمع – في الصيغة المذكورة – كل من حرف الذال والتاء المضارع به صفة الجهر التي لأخيها الدال، والذال أصل في الصيغة – كما رأينا–، في حين أن الدال ليس كذلك؛ بل هو التاء المشم به صفة الجهر التي لأخيه الدال، إضافة إلى أن حرف التاء إنما أتيَ به لغرض، وهو حرف زائد في صيغة (افتعل)، فإذا علمنا ذكاء العربي وحسن تصرفه في النطق بحروف لغته تحقق لنا – حينئذ – القول بتغليب صفات حرف الذال عليه، نحا للأصل، وكونه فرعا من الدال، وليس هو حقيقة حرف الدال؛ فطغت عليه صفات حرف الذال؛ بحثا عن السهولة في النطق، وتيسيرا للمجهود العضلي؛ فقالوا: اذذكر؛ فاجتمع ذالان في الصيغة الواحدة، أحدهما ساكن، والآخر متحرك؛ فأدغم أحدهما في الآخر هكذا (اذّكر) على سبيل المضارعة التقدمية الكاملة .

[د]

[د]——◄[ذ]/ ——*/ذ/، على سبيل المضارعة التقدمية الكاملة.

وهناك طائفة من العرب وجدت صعوبة في نطق حرف الدال بجوار أخيه حرف الذال في الصيغة السابقة (اذدكر)، وكأنهم عدوا الدال حرفا تاما، وليس هو التاء أشم شيئا من صفة الجهر التي لأخيه الدال، والمعروف أن حرف الدال عند مقارنته مع أخيه حرف الذال يعد أقوى منه صفات؛ إذ هو من حروف الشدة والقلقلة والوقف، بينما الذال حرف رخو، ولا يمتلك صفات قوة في مقابل أخيه حرف الدال؛ فتغلبت صفات القوة التي لحرف الدال على صفات الضعف التي لأخيه الذال، مع أنه هو الأصل في الصيغة والدال حرف دخيل؛ وهو تطور عن حرف التاء، وهناك صيغ كثيرة – في اللغة العربية – غلب فيها صفات الحرف الدخيل على صفات أخيه الحرف الأصيل؛ إذا كان ضعيفا، فقالوا: اددكر؛ فاجتمع – في هذه الصيغة – حرفان أحدهما ساكن والآخر

متحرك؛ فأدغم أحدهما في الآخر؛ فقيل (ادّكر)، وبها ورد القرآن الكريم في سورة يوسف – عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم – حيث قال الله تعالى: ﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾ [آية ٤٥]، وليس – في المعاجم العربية – كلمة هي أصل للفظ (ادّكر) إلا (ذكر)، وقد حدث فيها من التغيير ما قلناه فيما سبق .

[ذ]

[ذ]ــــ← [د] / *ــــ[د]، على سبيل المضارعة الرجعية الكاملة .

٢. قال ابن جني – يرحمه الله – في كتابه (سر صناعة الإعراب)[1]: «إذا وقعت فاء الافتعال واوا أو ياء فإن فاءه (الواو والياء) تقلب تاء، وتدغم في تاء افتعل التي بعدها؛ وذلك نحو: اتّزن، أصله اوتزن، فقلبت الواو تاء، وأدغمت في تاء افتعل، فصار اتّزن، ومثله اتّعد واتّلج واتّصف من الوصف، قال الأعشى:

فإن تَتَّعِدْنِي أَتَّعِدْكَ بِمِثْلِها   وسوف أَزِيدُ البَاقِيَاتِ القَوَارِصَا

وقال طرفة:

فإنَّ القَوافِي يتَّلِجْنَ مَوَالِجا   تَضَايقُ عنــــها أنْ تَوَلّجَها الإبَر

وقال سحيم:

وما دُمْيَة من دُمَى مَيْســــ   ـــانَ مُعْجِبَةٌ نَظراً واتّصَافا.

وقال الشيخ أحمد الحملاوي – يرحمه الله – في كتابه (شذا العرف في فن الصرف): إذا كانت فاء الافتعال واوا أو ياء أصلية، أبدلت تاء، وأدغمت في تاء الافتعال، وكذا ما تصرف منه، نحو: اتّعد، واتّصل، واتّسر، من الوعد والوصل واليسر ...إلخ[2] .

---

(١) سر الصناعة، ١/١٦٣وما بعدها،

(٢) الحملاوي، أحمد، كتاب شذا العرف في فن الصرف، المكتبة الثقافية، بيروت – لبنان، =

وكما ذكرنا في المثال السابق، فإننا لا نقر تحليلا صوتيا لمثل هذه الظاهرة الصوتية في هذه الألفاظ على هذا النحو من القفز إلى النتائج دون البحث في التفاصيل، وتتبع مراحل التطور لهذا الحرف أو ذاك، وإمكانية أن يكون هذا التحول منطقيا – وفق القوانين الصوتية – من عدمه .

إن ما ذهب إليه معظم الصرفيين العرب – قدماء ومحدثين – في هذا الإجراء اللغوي لما حدث لحروف هذه الألفاظ من تطور غير مقنع لكثير من الطلاب العرب عند النظر والتأمل في أصل هذه الصيغ وما صارت إليه (فنولوجيا)، فما ذا حدث إذن ؟ .

ولنذهب إلى ما قاله ابن جني في كتابه (سر صناعة الإعراب) وهو يعلل سبب هذا التحول في نظره حيث قال: ‹‹والعلة في قلب هذه الواو – في هذا الموضع تاء – أنهم لو لم يقلبوها تاء، لوجب أن يقلبوها؛ إذا انكسر ما قبلها ياء، فيقولوا: ايتزن، ايتعد، ايتلج، فإذا انضم ما قبلها ردت إلى الواو فقالوا: موتعد، وموتزن، وموتلج . وإذا انفتح ما قبلها قلبت ألفا، فقالوا: ياتعد، وياتزن، وياتلج، فلما كانوا – لو لم يقلبوها ياء – صائرين من قلبها مرة ياء، ومرة ألفا، ومرة واوا، إلى ما أريناه، أرادوا أن يقلبوها حرفا جلدا، تتغير أحوال ما قبله وهو باق بحاله، وكانت التاء قريبة المخرج من الواو؛ لأنها من أصول الثنايا، والواو من الشفة؛ فأبدلوها تاء، وأدغموها في لفظ ما بعدها، وهو التاء، فقالوا: اتّعد واتّزن، وقد فعلوا هذا أيضا في الياء، وأجروها مجرى الواو، فقالوا في افتعل من الييس واليسر: اتّبس واتّسر، وذلك لأنهم كرهوا انقلابها واوا متى انضم ما قبلها في نحو: موتبس، وألفا في: ياتبس، فأجروها مجرى الواو فقالوا: اتّبس واتّسر، ومن العرب من لا يبدلهما تاء .

= ص: ١٤٨.

وما ذكره ابن جني تعليلا صوتيا لهذه الظاهرة، ووافقه كثير من الصرفيين العرب – قدماء ومحدثين – على مذهبه، كلام ينقصه – في رأيي – كثير من الإقناع بالحجج والشواهد التي أوردها؛ إذ لا علاقة صوتية لا من حيث المخرج أو الصفة – كما ذكرنا سابقا – بين كل من حرفي الواو والياء وحرف التاء كما ذكر، ولا نسلم أبدا بقرب المخرج بين حرف الواو والتاء – في الظاهر – بكون الأول يخرج من الشفة، والثاني يخرج من أصول الثنايا، ولا ضرورة ملجئة لنا في هذا التأويل البعيد مع وجود تفسير له من أقرب طريق، كما أننا نؤكد أن ما سماه قلبا لفاء الافتعال تاء لا يقتصر على ما فاؤه واو فقط ولكنه يجري فيما فاؤه ياء أيضا نحو: اتّسر واتّبس من ايتسر وايتبس .

فإذا سلمنا بحصول ذلك مع الواو؛ لتقارب المخرج – كما يزعم – فإننا لا نرى أي تقارب في المخرج بين كل من حرف التاء و أخيه حرف الياء .

وأغرب من هذا الإجراء اللغوي لهذه الظاهرة – في رأيي – ما نجده عند أحد الباحثين اللغويين المحدثين حينما أشار صراحة إلى ضرورة وجود علاقة صوتية بين الصوتين المتجاورين؛ ليتم التأثر إبدالا أو مماثلة في مثل هذه الألفاظ، وهذه العلاقة ترجع إلى اعتبارين أساسيين:

الأول: تقارب المخرج أو اتحاده .

الثاني: كون الصوتين من مجموعة واحدة من الصوامت، أو الحركات .

فلا يمكن أن يؤثر صوت في آخر بعيد عنه مخرجا، كما لا يصح القول بأن صوتا من جنس الصوامت يبدل من صوت من جنس الحركات، فشتان بين المجموعتين من كل جانب، وفي هذا الصدد يرد علينا ما ذكره الصرفيون من أن الواو أو الياء تقلب تاء، إذا كانت إحداهما فاء للافتعال، وما تصرف منها، نحو: (اتّصل، واتّعد)، من الوصل والوعد، وكذلك (اتّسر) من: اليسر. وقد فسروا هذه الأمثلة بقلب الواو أو الياء تاء، تأثرا بتاء الافتعال، والواقع أنه تفسير بعيد عن

الصحة مطلقا، لبعد ما بين التاء من جانب، والواو والياء من جانب آخر .

فالتاء: صوت لثوي انفجاري مهموس (من الصوامت)

والياء: صوت غاري انطلاقي مجهور، انتقالي (نصف حركة) .

والواو: صوت طبقي انطلاقي مجهور، انتقالي (نصف حركة) .

وكل ما حدث هو استثقال الواو والياء في هذا الموقع دفع الناطق العربي إلى إسقاطهما، وتعويض موقعهما بتكرار التاء، فالتاء – هنا – مجرد وسيلة لتحقيق الإيقاع اللازم لصيغة الافتعال، لا غير . وقد وردت أفعال توهم أنها من النوع ذي التعويض الموقعي؛ مثل: (اتّخذ)، والواقع أن وزنها (افتعل)، على الأصل، ولا إبدال فيها؛ لأن أصل الفعل: تخذ، وكذلك: (اتّبع)، من: تَبِعَ . ولقد نتساءل عن وزن الفعل الذي جرى فيه هذا التعويض الموقعي، من مثل: اتَّصل، واتَّعد، واتَّسر، وأنا إلى وزنه على البدل أميل؛ فقد سقطت فاؤه، وعوض موقعها بالتاء: فوزنه (اتَّعل)، ما دامت تاء التعويض من مثل تاء الافتعال، أي: من أحرف الزيادة (١).

لكننا نذكر – ههنا – تحليلا صوتيا آخر لهذه الظاهرة، يتلاءم مع القوانين (الفنولوجية) التي يعتقدها كثير من الباحثين الصوتيِّين المحدثين،و نزعم – أولا – أن أصل هذه الألفاظ وما شاهها (افتعل) من الأفعال الثلاثية (وعد، وصل، يسر) ←—— (اوتعد، واوتصل، وايتسر)، فاجتمع – في هذه الصيغ وأمثالها – كل من الواو والياء والتاء دون فاصل؛ وهي حروف متنافرة – حسبما ذكرناه سابقا – في المخرج والصفات؛ فحرف التاء له مخرج واضح وثابت في جهاز النطق العربي، وهو طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا؛ بينما ليس للواو والياء مخرج واضح ومحدد، وإنما هما – حينئذ – حرفا لين تتصفان

---

(١) المنهج الصوتي للبنية العربية، ص: ٢١١.

بسعة المخرج نصف هواء يخرج من الجوف مع تشكل الجهاز النطقي بوضع مناسب مع كل من الواو والياء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هناك تنافرا في الصفات بين حرفي الواو والياء وحرف التاء؛ إذ يتصف حرف التاء بأنه شديد وقفي وهي صفة قوة؛ في حين يعد كل من حرفي الواو والياء بأنهما حرفا لين (شبه علة)، وهي صفة ضعف، والتاء حرف مهموس، وحرفا الواو والياء مجهوران، ولا جدال في أنها صفات متضادة – كما سبق – مما أدى إلى صعوبة النطق بهما مجتمعين مع التاء على ألسنة الناطقين العرب، وقد عودنا العربي بأنه ذكي، حسن التصرف بحروف لغته؛ ففر إلى تغليب حرف التاء مخرجا وصفات على كل من حرفي الواو والياء؛ لأسباب عديدة :

١. لعل من أهمها إجماع اللغويين العرب – قديما وحديثا – على أن الواو والياء حرفا شبه علة، وحروف العلة وأشباه العلة مقارنة مع الحروف الصحيحة الساكنة تتسم بصفة الخفاء لسعة مخارجها – كما سبق ـــ، وهي تتصف – أيضا – بالمرض والعلة، واحتمال سقوطها وفنائها في أثناء النطق لا يستغرب، فكما لا يُسأل – في عالم الكائنات – عن موت المعلول والمريض؛ لتوقع ذلك في كل وقت وآن،وإنما نَسأل عن موت الصحيح والسليم، فكذلك ما حدث ههنا، ولهذا سقطت حروف العلة وأشباه العلة – في رأيهم – في كثير من الصيغ العربية؛ تسهيلا على النطق؛ نحو: وقف ووهب ←―― يقف ويهب، ونقف وهب، وأقف وأهب، و قِفْ، و هَبْ، والأصل: يَوْقِف ويَوْهَب، ونوقف ونوهب، وأوقف وأوهب، فلهذا سقطت هنا كما سقطت هناك .

٢. ما ذكره علماء اللغة العربية والنحو القدماء من التعاقب بين كل من حرفي الواو والياء عندما يقعان فاء وحرف التاء في كثير من الصيغ العربية، فقد قال ابن جني نفسه: ((قد أبدلت التاء من الواو فاء إبدالا صالحا؛ وذلك نحو:

تجاه، وهو فعال من الوجه، وتراث: فعال من ورث، وتقية: فعيلة من وَقيت، ومثله التقوى، هو فعلى منه، وكذلك تقاة: فعلة منها . وتوراة عندنا فَوْعَلَة من وَرِيَ الزَّند، وأصلها وَوْرَية، فأبدلت الواو الأولى تاء؛ وذلك أنهم لو لم يبدلوها تاء لوجب أن يبدلوها همزة، لاجتماع الواوين في أول الكلمة، ومثلها تولج وهو فوعل من ولج يلج، كذا هو القياس في هذين الحرفين، وأصله على قولنا: وَوْلَجَ، وتَوْراة ... ومن ذلك تخمة، وأصلها وُخمة؛ لأنها فُعَلَة من الوخامة، وتُكَأة؛ لأنها فُعَلَة من: تَوكَّأتُ، وتُكلان: فعلان من توكلت، وتَيْقور: فيعول من الوَقار ...إلخ وقالوا: رجل تكلة، أي وُكلة، وهو فُعَلة من وَكل يكل، وقالوا: أتلجه أي أولجه، وضربه حتى أتكأه أي أوكأه، وعلى هذا أبدلوا التاء من الواو في القَسَم، وخصوا بها اسم الله تعالى، وقالوا: التليد والتلاد من ولد، وتترى: فعلى من المواترة، وأصلها وَتْرَى»(١)

لم يستطع حرفا اللين (الواو واللين) أن يجاورا حرف التاء الشديد الجلد في هذه الألفاظ وأشباهها، وكان نفوذ حرف التاء على أخويه المجاورين له أقوى للأسباب التي ذكرت سابقا، وكما أنه – في عالم الكائنات – ليس بإمكان الضعيف أن يقاوم نفوذ القوي الذي يعيش معه في بيئته، ويدفع سلطانه عليه إلا بأن يحاكيه ويمالئه، كان أمام حرفي اللين سبيلان، إما السقوط وترك فراغ يؤثر على وزن الصيغة؛ لتصبح (اتَعل بدلا من افتعل)، وإما أن يصبغا نفسيهما بسمات حرف التاء الأقوى، لذا وجدا من الأسهل عليهما أن يحاكياه ويضارعاه في مخرجه وصفاته، وكان التأثير حاصلا من الحرف الدخيل على أخيه الأصيل؛ وهذا – وإن كان غير مشهور – إلا أنه قد يحدث في حروف اللغة – وله

---

(١) سر الصناعة ١/ ١٦٢،

شواهد كثيرة من اللغة العربيةـــ أن يتغلب الدخيل إذا كان قويا على الأصيل الضعيف، ويفرض عليه نفوذه، ويخضعه لقوانينه، وقد سبق الإشارة إلى ذلك .

ويمكن تفسير ذلك – فنولوجيا – هكذا:

/و/ ← | o [ت] | / *ـــ[ت]،على التعويض والمضارعة الرجعية التامة.

وكذا:

/ي/ ← | o [ت] | / *ـــ[ت]،على التعويض والمضارعة الرجعية التامة.

* * *

خاتمة

لعلنا – رأينا في الصفحات السابقة – ما تقتضيه مسألة السهولة في النطق، والبحث عن أيسر الطرق للاقتصاد في المجهود العضلي، وتلمس أسهل السبل للنطق بحروف الكلمة؛ ولهذا يحاول كثير من اللغات البشرية المنطوقة – ومنها اللغة العربية – التخلص من الأصوات الصعبة، وتتجاوز ذلك إلى اختيار الحروف السهلة في النطق، وما ذلك إلا لأن الكلام نشاط، وكل نشاط يحتاج إلى طاقة، وكل ما استطاع الناطق أن يقتصد في بذل طاقته فإنه يفعل، ومما تهدف إليه اللغات البشرية المنطوقة البحث عن فصاحة الكلمة، ومن مقتضيات هذه الفصاحة أن تكون حروفها لينة سهلة تتجاوز أصواتها تجاوزا هادئا؛ تتجاوب فيه، وتتلاقى أنغامها، وأن تكون مألوفة جرت على الألسنة، ووردت وفق قواعد تصريف الكلمات، وبعدت حروفها عن التنافر والغرابة، فإذا تنافرت حروف الكلمة كان ذلك معيبا ومخلا بفصاحتها .

وأبرز سبب يذكره البلاغيون لهذا التنافر هو قرب مخارجها؛ أي تكون حروف الكلمة المتتابعة تخرج من مخارج قريبة جدا، وهذا – كما قالوا – يشبه مشي القيد، أي أن أعضاء النطق – بعد الفراغ من إخراج الصوت – يضطرها الحرف الثاني إلى أن تعود إلى مخرج قريب جدا من الأول، وكان يسهل عليها أن تنتقل إلى مخرج أبعد؛ كأن تثب من الحلق إلى اللسان مثلا، والمقيد ينقل قدمه لبعضها بعيدا، ثم يثقله القيد؛ فيضطر إلى أن يعود في موضع قريب جدا، والعرب يكرهون هذا في نطقهم حروف كلماتهم، وقد بنيت لغتهم على الخفة، ولذا رأيناهم – كما سبق – يعمدون إلى وسائل توصلهم إلى النطق السليم بالحروف؛ فوجدناهم يميلون إلى الإدغام بين الحروف المتماثلة؛ مثل: شدّ ومدّ

وما شابههما، وإلى المضارعة والمحاكاة، أو المجانسة والتقريب بين صفات ومخارج الحروف المتنافرة؛ للحصول على مرحلة وسطى تجمع بين الحرفين المتنافرين، وتخفف من الاختلاف بينهما؛ لكي يسهل النطق بهما؛ إذا ورد في بيئة لغوية واحدة تجاورا، أو فصل بينهما بفاصل، وتعد العربية إحدى اللغات العالمية التي تمتاز بهذه الظاهرة في أصواتها بقسميها (الحروف الصحيحة الساكنة، والحركات) .

وقد عرضنا – على الصفحات السابقة – آراء علماء اللغة العربية والنحو القدماء والمحدثين حول ظاهرة المضارعة والمحاكاة أو التقريب والتجنيس بين صفات ومخارج الحروف المتنافرة مخرجا أو صفة أو كليهما، وناقشنا قوانينهم في هذه المسألة، وطريقة عرضهم لما حدث من تغيير لبعض الحروف دون بعض .

وينبغي أن نعلم أن نطق الحروف بطريقة سليمة؛ وفق القواعد الصوتية الأدائية، يقوم ابتداء على سهولة نطقها، وحسن تصرف الناطقين بها؛ وفق مقتضيات القواعد الصوتية الأدائية التي تقبلها أنظمة اللغة عينها؛ وذلك يؤدي – في النهاية – إلى إبراز المعاني فيها، وإيصالها بطريقة سليمة إلى المتحدثين بها؛ ولهذا يعمد المتكلمون باللغة إلى استبدال السهل من أصوات اللغة بالصعب الشاق الذي يحتاج إلى مجهود عضلي أكبر، ومعلوم أن الفرار إلى النطق بالحرف السهل، والبحث عنه، وقدرة اللغة على توفير أكثر من خيار أمام الناطقين بحروفها، يعد أهم مقتضيات نظرية السهولة في اللغات العالمية التي تعد اللغة العربية واحدة منها.

المصادر والمراجع

- أولا: العربية:

١. القرآن الكريم، هو المصدر الأساسي لهذا البحث، ثم تمت الاستعانة ببعض الكتب والبحوث، ويمكن ترتيبها على النحو التالي:

٢. إبراهيم، عبد العليم. تيسير الإعلال والإبدال. مطبعة الفجالة الجديدة القاهرة.

٣. ابن جني، أبو الفتح عثمان.

٤. الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. دار الهدى للطباعة والنشر. بيروت لبنان.

٥. المنصف شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني (١٩٥٤م).تحقيق: إبراهيم مصطفى وآخرين. مطبعة مصطفى الحلبي.ط١.

٦. سر صناعة الإعراب تحقيق مصطفى السقا وآخرين. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. ط١.

٧. ابن الجزري. النشر في القراءات العشر(ج١). دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت.

٨. ابن سيده. المخصـــص (ج١٣). م٤. دار الفكر – بيروت.

٩. ابن غلبون، أبو الحسن طاهر بن عبد المنعم (١٤١٢ﻫ) التذكرة في القراءات الثمان(٢). تحقيق أيمن رشدي سويد.ط١. الجماعة الخيرية – جدة.

١٠. ابن معطي. (١٤٠٥ﻫ) شرح ألفية ابن معطي(ج٢). تح. علي موسى الشوملي. مكتبة الخريجي ط١.

١١. ابن يعيش. شرح المفصل (ج١٠). عالم الكتب – بيروت.

١٢. أبو حيان. البحر المحيط. مصورة عن مطبعة مولاي السلطان عبد الحفيظ سلمان. المغرب.ط٣.

١٣. أبو معشر، عبد الكريم الطبري. (١٤١٢هـ). التلخيص في القراءات الثمان. تح.محمد حسن موسى ط١. الجماعة الخيرية – جدة.

١٤. الإستراباذي، رضي الدين. شرح الشافية. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

١٥. أنيس، إبراهيم. (١٩٨١م). الأصوات اللغوية. مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة. ط٦.

١٦. الحملاوي، أحمد. كتاب شذا العرف في فن الصرف. المكتبة الثقافية – بيروت – لبنان.

١٧. حسام الدين، كريم زكي. (١٩٨٩م). أصول تراثية في علم اللغة – مكتبة الأنجلو المصرية – ط٢.

١٨. الخولي، محمد علي(١٤٠٧هـ) الأصوات اللغوية. مكتبة الخريجي. ط١.

١٩. الدمياطي، أحمد بن محمد. إتحاف فضلاء البشر في القراءات العشر. مصر.

٢٠. الراجحي، عبده. اللهجات العربية في القراءات القرآنية. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.

٢١. الزمخشري، أبو القاسم محمود.(١٤١٠هـ) المفصل في علم العربية. دار إحياء العلوم – بيروت.

٢٢. سيبويه. (١٣١٧هـ). الكتاب ج٢. المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر. ط١.

٢٣. شاهين، عبد الصبور (١٩٨٠م). المنهج الصوتي في البنية العربية. مؤسسة الرسالة – بيروت.

٢٤. الصالح، صبحي. دراسات في فقه اللغة. بيروت – لبنان.

٢٥. عبد التواب، رمضان. التطور اللغوي " علله ومظاهره وقوانينه". مطبعة المدني – المؤسسة السعودية بمصر.

٢٦. المرصفي، عبد الفتاح. (١٤٠٢هـ) هداية القارئ إلى تجويد كلام البارئ. ط١. دار النصر للطباعة الإسلامية – شبرا– مصر.

٢٧. نصر، عطية قابل. (١٤١٣هـ).غاية المريد في علم التجويد. دار الحرمين. ط٣.

- ثانيا: المراجع الأجنبية:

1. **Schane, A.Sanford .(1973) .(Generative Phonology) prentice – Hall , Inc., Englewood Cliffs, New Jersey.**
2. **Sloat, Clarence (1978) (Introduction Phonology). Prentice -Hall, Inc, Englewood Cliffs, N.J.**
3. **Lass, Roger. (1984). (Phonology). Cambridge Textbooks in Linguistics.**
4. **Godby, Carol. (1982). (Language Files). Department of Linguistics , the Ohio State Univ.**

* * *

فهرس الموضوعات

بعض الرموز المستخدمة في هذا البحث ٣٨٧
مقدّمة ٣٨٨
تعريف المضارعة الصوتية وأقسامها ٣٩١
دواعي المضارعة الصوتية بين الحروف في اللغة العربية ٣٩٧
الصفات الأصلية غير المتضادة: ٤٠٦
الصفات الأصلية المتضادة ٤٠٨
المضارعة الصوتية بين الحروف الصحيحة الساكنة ٤١٢
المضارعة الصوتية بين الحركات: ٤٣٤
المضارعة الصوتية عند القدماء وبعض اللغويين المحدثين: ٤٤٦
رأي نقدي ٤٥٠
خاتمة ٤٦٨
المصادر والمراجع ٤٧٠
فهرس الموضوعات ٤٧٢

* * *